قصص

المجموعة القصصية الثانية

أحمد ابراهيم الفقيه



الذئاب التي هناك

مضى يركض.. ويركض.. ويركض..

أشرقت الشمس وهو يركض..

وجاء الضحى وهو مازال يركض، وها هو النهار ينتصف، والصبى يواصل ركضه..

رأى شجرة بطوم عملاقة تنتصب فى سفح هضبة صغيرة، اتجه إليها وارتمى يلتقط أنفاسه تحت ظلها، جف حلقه، تورمت قدماه، وأحس بجسمه وقد صار قطعة قماش بالية نتيجة ما لحق به من تعب وإعياء، لم يكن يظن أنه سوف يجرى بمثل ما جرى هذا اليوم، ولم يكن يتصور أنه قادر على قطع كل هذه المسافات الصحراوية الشاسعة، ولكن قوة هائلة كانت تدفعه إلى أن يركض ويركض برغم الإعياء ورغم الخدوش التى تملأ جسده، إنه الآن بمنجى منهم ومن بنادقهم..

كان جائعا..

وبرغم برودة الجو فقد كان متحرقا إلى قطرة ماء تطفئ عطشه.. ومع ذلك فقد كان سعيدا لأنه استطاع أن يهرب من جحيم معسكر الاعتقال، فخورا بأنه استطاع أن

يهزم الحراس الطليان الذين يضربون حصارا حول المعسكر، إنه الآن بلا شك قريب من الحياة والعمران بعد أن قطع هذه الأرض الصحراوية الجرداء، إن وجود هذه الأشجار دليل على أنه اقترب من المناطق المأهولة بالسكان.. اتكأ على جذع الشجرة، وأحس بالخدر يتسلل إلى جسمه بعد هذا الركض الطويل.. تذكر وهو بين النوم واليقظة الأهوال التى عاشها فى معسكر الاعتقال الذى أقامه الإيطاليون لكل العائلات الليبية التى تقطن الصحراء، أقاموه من أجل إبادتهم ومن أجل منعهم من المشاركة فى الجهاد، تذكر والده عندما هده المرض نتيجة للأوبئة التى تنتشر داخل المعسكر، تركوه يموت كما تركوا المئات يموتون مثله دون أن يسعفهم أحد بالدواء أو العلاج، وتذكر أمه عندما أرادت أن تحتج على سوء المعاملة التى أودت بحياة زوجها، فأخذوها إلى ساحة المعسكر وصاروا يجلدونها بالسياط أمام الناس، وكان هو يصرخ فيركلونه ويضربونه ويمنعونه من الاقتراب منها، ولم تمض سوى بضعة أيام على هذه الحادثة حتى ماتت هى الأخرى، كان يبكى وينتحب داخل المعسكر، وكان يرى الناس جميعا يبكون، فالموت يحكم المعسكر، كل

يوم يموت العشرات مرضا وضعفا وجوعا وهما وكمدا، أما أولئك الذين يتجاسرون على الاحتجاج أو يحاولون الهروب فكانوا يعلقونهم فى المشانق أو يقتلونهم رميا بالرصاص بجوار الأسلاك الشائكة..

مات والده.. ثم ماتت أمه.. وظل هو وحيدا يتيما حزينا يبكى ويبكى ويبكى ويفكر فى الهروب صباح مساء، إنه لا يعرف إلى أين سيذهب عندما يهرب، ولكنه لم يعد يطيق البقاء هنا أبدا، لا بد أن يخترق هذه الأسلاك الشائكة، ويترك معسكر الموت هذا، حتى لو قتلوه وهو يحاول الهروب، فإن موته لن يكون أكثر فظاعة من هذه الحياة التى يحياها.

بالأمس فقط رأى حفرة صغيرة تحت الأسلاك، حفرة يبدو أن ذئبا أو كلبا تسلل منها ولم ينتبه الحراس إلى وجودها، حفرة صغيرة ولكنها كافية لأن يتسلل منها صبى مثله، قرر ألا يترك هذه الفرصة تضيع من بين يديه، سينتظر مجيء الظلام، ثم يغافل العسس ويهرب من هذا الجحيم..

لم ينم ليلة البارحة، كان الظلام دامسا وكان البرد شديدا، انتظر إلى أن نام سكان المعسكر، وماتت الحركة بداخله، وتوزع الحراس الطليان على مسافات بعيدة، أدرك أن المكان الذى اعتزم أن يتسلل منه قد صار خاليا من العسس، فزحف على بطنه حتى وصل إلى الأسلاك الشائكة، ثم دس جسمه داخل الحفرة، كانت فعلا حفرة صغيرة لا تتسع لأكثر من قط أو كلب أو ذئب، ولكن لا مجال إلى التراجع، مزقت الأسلاك جزءاً من قميصه، وجرحت ظهره وكتفيه وذراعيه، ومع ذلك فقد مضى يدفع بجسمه من خلال تلك الحفرة حتى استطاع أن ينفذ منها إلى خارج المعسكر، قاوم رغبته فى الوقوف والجرى وهو يرى نفسه قد أصبح خارج الأسوار، تجمد فى مكانه حتى يتأكد من أن أحدا لم يلحظ هروبه، وعندما تأكد من ذلك واصل الزحف على بطنه، ظل يزحف حتى صار على يقين من أنه الآن فى منأى عنهم وعن كشافات ضوئهم إذا ما وجهوها إليه، فرفع جسمه عن الأرض، وانتصب على قدميه ومضى يركض ويركض، ولم يكن ليبالى بما أصاب جسمه من تسلخ وجروح أثناء زحفه وأثناء اختراقه للأسلاك الشائكة، ظل

يركض ويركض إلى أن أشرقت الشمس وتناصف النهار ووجد هذه الشجرة فارتمى تحتها..

أغفى إغفاءة قصيرة متقطعة، فقد كان الصبى خائفا من أن يكتشف الطليان أمر هروبه فيرسلون دورية للبحث عنه، ولهذا فهو لا يزال حذرا متوجسا برغم ابتعاده عن معسكر الاعتقال، انتفض من غفوته مذعورا وهو يسمع وقع خطى تقترب منه، وقف يستطلع الأمر فوجد أن شيخا ذا لحية بيضاء يرتدى العباءة ويضع فوق كتفه بندقية قد جاء ووقف بجواره.. ألقى عليه السلام ومد له يده، غمرت الفرحة قلبه وهو يرى هذا الشيخ من أبناء وطنه الذى بدت على وجهه علامات المهابة والوقار، ارتمى عليه يحتضنه وهو يختلج ويبكى كأنه يحتمى به من شر كبير، أدرك الشيخ أن الولد قد تعرض لرعب هائل، أجلسه فوق الأرض، أطعمه قطعة خبز. وسقاه قليلا من الماء من مطرة كانت معه، وسأله مستفسرا بعد أن هدأ من روعه.

- هل طاردك الذئب؟

- لا.

قالها الولد ثم أشار بيده إلى ناحية معسكر الاعتقال.

- إنها الذئاب التى هناك..

ثم حكى للشيخ قصة هروبه وقصة الأهوال التى مرت به وفقد أثناءها والديه، كان الشيخ مندهشا لشجاعة هذا الصبي.

- هل حقا استطعت الهروب من ذلك الجحيم؟ إذا كان الأمر كذلك فإنهم بالتأكيد سوف يهتدون إلى أمر هروبك، ويرسلون وراءك من يقتفى أثرك، ولكن لا تخف يا ولدى فأنا كفيل بهم..

قالها الشيخ وهو يربت على بندقيته ثم أضاف:

- لم أخرج من قريتى إلا طلبا للشهادة..

أشار على الصبى أن يتركا الشجرة ويصعدا إلى قمة الهضبة لكى يتحصنا بها بانتظار أن تأتى دورية منهم..

باشرا صعودهما إلى قمة الهضبة، وما إن وصلا إليها حتى لاح لهما فى الجهة الأخرى منها غابات كثيفة من النخيل، أشار إليها الشيخ قائلا:

- قريتنا لا تبتعد كثيرا عن بساتين النخيل التى تراها هناك، إنها تقع خلفها مباشرة، سننتظر قليلا، وإذا لم يأت أحد سآخذك إلى هناك حيث سنتدبر أمر حمايتك..

ولم تمض سوى برهة قليلة حتى لاحت على البعد سيارة عسكرية إيطالية تحمل اثنين من الجنود، أدركا أنهما دورية جاءت تبحث عن الصبي.

طلب الشيخ من الصبى أن يبقى بعيدا عن مرمى النار، ثم احتمى بصخرة كبيرة فى قمة الهضبة، انتظر حتى اقتربت السيارة العسكرية، وصارت فى مرمى رصاصات بندقيته وأطلق النار، فوجئت الدورية الإيطالية بالرصاص ينهمر عليها من قمة الهضبة، ردت على النار، ولكن الشيخ كان يحتل موقعا متميزا، ويسيطر سيطرة كاملة على الموقف، ارتمى أحد الجنود الطليان من فوق السيارة وسقط على الأرض، فى حين انكفأ الثانى على مقود السيارة، أطلق الشيخ مزيدا من الرصاص، ولكن أحدا منهما لم يرد، عرف أنه قد قضى عليهما فوقف ليتأكد من الأمر، ولكنه ما إن وقف حتى وجد نفسه يتهالك ساقطا، فقد اكتشف أن رصاصة من رصاصات الطليان قد اخترقت صدره ولم يحس بها إلا الآن، جاء الصبى مهرولا ليجد الشيخ يتمتم بالشهادة ثم يلفظ أنفاسه الأخيرة، ارتمى فوق صدره يبكي، تذكر أن الشيخ قد وصف له الطريق إلى قريته، سيذهب من فوره إلى هناك

ويبلغ أهله، وبخطوات متثاقلة باشر رحلته إلى القرية، وما إن مشى مسافة قصيرة حتى تذكر أنه نسى شيئا، نعم البندقية، عاد مسرعا وحيث وجدها مرمية بجوار الشيخ الشهيد، أخذ الصبى البندقية، وعلقها على كتفه ومضى يقطع الطريق الذى ينحدر إلى القرية، وقد أحس وهو يحمل البندقية بشعور جديد يملأ وجدانه، لم يعد خائفا مرتعشا، إنه الآن قوى قادر على الدفاع عن نفسه، أحس بأنه لم يعد طفلا صغيرا يحتاج إلى حماية الآخرين، لقد صار الآن رجلا يحمل سلاحه ويعرف طريقه، وكما يفعل الرجال سوف يذهب للبحث عنهم وتخليص بلاده منهم.

نعم سوف يذهب لمطاردة الذئاب.. الذئاب التى افترست أمه وأبيه.. الذئاب التى هناك.

الرجل الأيرلندي

لقد جئت فى الوقت المناسب، فإن صديقك هذا شخص مثير للاهتمام حقاً، اسمى فرانك، فرانك أوبراين، من أيرلندا، هل أطلب لك شرابا؟ سأحضره بنفسى، إن هذا يمنحنى عذراً للحديث مع هذه "الأميرة" التى تشتغل ساقية فى هذه الحانة، إن لدى شيئاً أريد أن أقوله لها، هاهاها... لا يغرك مظهرى أيها الصاحب فإننى ما زلت شاباً، لقد أدركت أنه غريب فجئت لأتحدث إليه، إنها مدن قاسية على الغرباء، لقد جربت ذلك عندما جئت من دبلن إلى هذه المدينة لأول مرة، إنك لن تجد أحداً يتحدث إليك، يبدو كأن الإنسان منهم يطوى قلبه على سر كبير وخطير، وهو يخشى أن تجاذب أطراف الحديث مع الغرباء أن يفلت منه السر ويحيق به عقاب عظيم، إنه لا يجيد الإنجليزية، ولكننى استطعت أن أعرف من أنه مسافر فى دورة تدريبية إلى أيرلندا، لقد أسعدنى أن أعرف أن أيرلندا مكان يقصده الناس لطلب العلم، قل له ذلك، قل له أيضاً أننى كنت أظن أن الرجال فى مثل سنه لا يهتمون كثيراً بالذهاب إلى المدارس والالتحاق بالدورات، ولذلك فإننى أراك طوحه. إذا فهو ذاهب إلى

أسكتلندا، لقد أخطأت فهمه، ولكن لا يهم، قل له أيضاً أن مسألة اللغة مسألة لا يجب أن تقلقه كثيراً، إنهم فى أيرلندا سيحترمونك مفاجأة عظيمة لهم، لأنهم يظنون أن العالم كله قد نسى لغاته وصار لا يتكلم إلا الإنجليزية، إنهم يحسون بالإثم لأنهم نسوا لغتهم الأصلية وأسلموا أنفسهم لهذه اللغة الدخيلة، قل له ذلك؟ ستتعلم بسرعة وستجد نفسك تخاطبهم كأنك واحد منهم، أيرلندا تختلف كثيراً عن إنجلترا، ودبلن ليست لندن، ستجد حولك أصدقاء كثيرين، أناساً يأتونك ويبادرونك بالكلام كما أفعل أنا الآن، ليست لديهم أسرار تعذبهم ويخافون أن تتسرب إلى الغرباء، قل له ذلك، سأستأذن لدقيقة واحدة، أريد فقط أن أعرف منها الوقت المحدد الذى ستأتى فيه، لقد وعدت بأنها ستلاقينى يوم الأحد القادم، إنها المرة التاسعة أو العاشرة التى تمنحنى فيها موعدا وتخلفه، ولعلها تسخر منى، ولكننى على ثقة من أنها سوف تخطئ يوماً وتفى بوعدها، إننى على ثقة من أنها ستجد نفسها فى إحدى المرات وقد جاءت ساعة لقائنا وحيدة فى البيت، يملؤها إحساس بالوحشة والضجر لا تدرى معه ماذا تفعل بنفسها، وبدلاً من أن تبقى هناك بمفردها تفكر فى

الموت أو الانتحار، تأخذ حقيبة يدها وتخرج لمقابلتى فى الحديثة، إذا فهو مسافر إلى أسكتلندا، قل له إنهم فى أيرلندا لا يثقون بالإنسان إلا إذا كان يجيد قول الأكاذيب، ويتفنن فى صنعها، هل قلت له ذلك؟ إنهم لا يعشقون شيئاً أكثر من عشقهم لإنسان يعرف كيف يروى قصصاً أمجاده الوهمية، إنهم أكثر شعوب الأرض رغبة فى سماع الأكاذيب، ويزدادون بك إعجابا كلما عرفوا أنك تجيد صنعها، إذا فهو فتى لحام أرسلته مصلحة الموانئ فى هذه البعثة إلى أسكتلندا، ولكن من الأفضل أن يمنح نفسه مهنة كاتب، إنهم فى أيرلندا يعتبرون الكاتب شيئاً أشبه بالقديسين، وبدلاً من الحديث عن الموانئ ومهنة اللحام والحدادة فليحدثهم منذ أول لحظة يصل فيها إلى هناك عن قصائد الشعر يحلم أن يكتبها من وحى أيرلندا، والقصص التى يعكف على تأليفها، والرواية التى تعاقد على إعدادها مع إحدى لأن ملكة الإبداع لديه تكره الارتباطات والمواثيق والعقود فهى أشياء تتعارض مع طبيعته الحرة، ليقل لهم ذلك بأية لغة يشاء سيفهمونه، وسينزلونه من أنفسهم منزلة عالية، إنهم يحبون ا ، ويشربون الخمر حتى الموت، ويذهبون بأطفالهم إلى الكنيسة

يوم الأحد، ويعشقون سماع الأكاذيب، وهم صادقون مع أنفسهم ولذلك فإن عليك أن تكون صادقاً فى ذكر تلك الأكاذيب الصغيرة عن نفسك. ليس ضرورياً أن تدعى أن لك صداقة مع أحد الوزراء، أو أن والدك كان أميناً عاماً للأمم المتحدة أو أن أحد أسلافك كان ملكاً أو زعيماً، هذه أمور سوف لن تضيف إليك شيئاً، قل له ذلك، إن فى طبيعتهم شيئاً رومانسياً يعشق أخبار المغامرات، كأن تكون قد ذهبت يوماً فى رحلة لاصطياد النمور بإحدى الغابات. إن مثل هذه القصة تجعلهم يضفون عليك صفة الفارس الذى يتشرف كل إنسان بالتعرف إليه، أو شراء شراب له أو أخذه فى عزومة إلى بيته، لا بأس من أن تكون لك بعض التجارى العاطفية الحزينة، كأن تكون لك حبيبة لم تجد طريقاً للوصول إليك لسبب من الأسباب – وهى كثيرة فى تلك البلاد الشرقية بحسب علمى – فكان أن تخلصت من حياتها بابتلاع علبة كاملة من الحبوب المنومة، وأنك حزين من أجلها وقد غادرت مدينتك هروباً من ذاكرها. ستجدهم يبكون معك بدموع حقيقية، ويحاولون بأقصى جهدهم مواساتك والتسرية عنك، قل له ذلك، وقل له إنهم فى أيرلندا يفضلون هذا النوع

من الانتحار حيث يأتى الموت للإنسان وهو فى غيبوبة، لذلك فهم يدمنون الشراب، ويزدادون إدماناً عندما يكونون قريبين من سن من الموت، لكى لا يفاجئهم وهم فى حالة صحو أو يقظة. إذا فهو ذاهب إلى أسكتلندا. إننى أنسى ذلك أحياناً، ولكن قل له إنك ستحب الأيرلنديين أكثر، وستجدهم يحبونك ذا ما عرفت كيف تفرح قلوبهم الطيبة ببعض الأكاذيب الصغيرة البيضاء التى لا تؤذى أحداً، لا بأس من أن يقول لهم إنه قابل بيكاسو قبل أن يموت، وإنه شرب كأساً مع أزرا باوند فى أيامه الأخيرة، وإنه يحتفظ ببعض المراسلات مع أحد نجوم المسرح أو الغناء أو الموسيقى، إنها أشياء لا تكلف شيئاً ولا تسبب ضرراً لأحد، ولكنها سوف تجعلهم يحبونه كثيراً، إن النساء أكثر ضعفاً عند ذكر نجوم المسرح والغناء، قل له ذلك، إننى أرى فى يده خاتم خطوبة أو زواج، صرت فى الحقيقة لا أعرف ما يعنيه وجود هذا الخاتم فى اليد اليسرى، لقد مر زمن طويل على تلك التجربة التى عرفت منها أننى لم أخلق لأكون زوجاً، إننى أنصح كل من يذهب إلى دبلن أن يخلع من أصبعه هذا الخاتم، لأنه سيجعل النساء يهربن من صحبته، ليس فقط لأن

التقاليد الكاثوليكية ما تزال تحتفظ بنفوذها الكبير على أذهان الناس، بل لأن حلم الزواج يظل دائما دافعاً ومحركاً لمثل هذه العلاقات النسائية، قل له ذلك. إننى أراه يبتسم، أعرف هذا الشوق العظيم المرأة الذى يملأ قلوب الرجال القادمين من الشرق، كان والدى فى لحظات الغضب يعير أمى بأنها من سلالة غجرية، ولكننى الآن أفخر بهذا الدم الغجرى الذى أحس به يهدر فى عروقى، إننى لا أرى أن هناك فى الحياة أكثر متعة أو نبلاً أو حلالاً من النظر فى وجه امرأة جميلة، هاهاها... ليس معنى ذلك أننى أكتفى بالنظر، إننى أكثر طمعاً من ذلك، قل له بأنك ستنعم بصحبة امرأة صغيرة شهية إذا ما أردت أن تستفيد من هذه النصائح التى أقولها لك. ستجد من يشترى لك شراباً فى الحانات، ويقيم من أجلك حفلة يدعو إليها أعظم الجميلات إذا ما عرفت كيف ترتدى مظهر شاعر لم يفهمه العالم، لأن أيرلندا ستتقدم بكل شهامة وكبرياء لتثبت لك أنها وحدها فى الكون من يفهم ويحتضن أمثالك من الشعراء، قل له ذلك. إننى متأسف لأننى أنسى أحياناً أن أمنحك الوقت الكافى لترجمة ما أقوله، إنك تتكلم إنجليزية ممتازة، لا بد أن لك زمناً طويلاً فى هذه المدينة، لا بد أنك

تعرف شيئاً عن الفرق بين طبائع الإنجليز وطبائع الأيرلنديين، أغلب رواد هذه الحانة من أيرلندا، نعم، صاحبها من دبلن، إنه صديق قديم، كلانا هاجر منها، أحب أيرلندا ولكن وطنى حيث أجد ما يكفى من المال لأعيش حياة ميسورة، أن دبلن مدينة عظيمة، قل له ذلك أنها مدينة مختلفة، لا أقصد أبنيتها وشوارعها ولكن روحها مختلفة إنها لا يمكن إلا أن تكون مدينة أيرلندية، قل له ذلك من فضلك، وقل له أننى سعيد بأن أجد رجلاً يذهب إلى أيرلندا طلباً للعلم، إننى أدعوكم لشرب كأس أخرى، إنها نخب أيرلندا هذه المرة، أنه أمر مؤسف حقاً، إذاً فهى أسكتلندا، كنت سأكتب له عنوان أصدقاء لى فى دبلن، ولكن ذلك لن يفيده طالما أنه ذاهب إلى أسكتلندا، إننى لا أعرف أحداً هناك، أنهم فى أسكتلندا لا يحبون الأكاذيب ولا يطيقونها أبداً، لن يفيدك شيئاً أن تخترع أعظم القصص وأجملها، ولن يعنى بالنسبة لهم شيئاً أن تكون لك موهبة بيكاسو فى الرسم أو دانتى فى الشعر، إنهم فى أسكتلندا واقعيون إلى أقصى حد، لا يرضون بشيء سوى الحقائق مهما كانت قسوتها، ولذلك فإن عليك

وأنت تسافر إلى هناك أن تنسى القصص والأشعار وأن تملأ جيبك نقوداً...

فرصة طيبة على أية حال، قل له ذلك، لقد أدركت أنه غريب فجئت لأتحدث إليه، إنها مدن قاسية على الغرباء، إنك لن تجد أحداً يتحدث إليك، ولكن أيرلندا شيء آخر، عالم آخر، قل له ذلك.

الرجل الذى لم يشاهد فى حياته نهرا

وجد كرسيا شاغرا بإحدى المناضد القليلة التى تناثرت على رصيف الشارع، استأذن الرجل الذى يشرب القهوة، ارتمى بجواره على الكرسى فى إعياء وجاءه العامل فطلب لنفسه فنجانا من القهوة.

اشعل لفافة تبغ، ونظر حالما إلى الشارع الذى امتلأ بهدير السيارات، وتصور للحظة أن الشارع قد تحول إلى نهر، وارتال السيارات تحولت إلى قوارب تحمل عشاقا وتمضى مع التيار فى بطء، والقمر الذى يشع ذهبيا فى الضفة المقابلة أشعل ألسنة النار فى زرقة النهر، ورأى نفسه يجلس إلى خميلة عند ضفة النهر، تحت قدميه نبتت الأعشاب والزهور، وقريبا منه جاءت تطوف الفراشات والعصافير، ومن حوله انتشرت أشجار الورد وقد صفت تحتها عشرات الموائد التى جلس إليها رجال ونساء يتحادثون همسا ويتبادلون الأنخاب، ملأ صدره بشذى الزهور واستسلم فى خدر لذيذ لصوت الموسيقى الذى ينبعث من مكان قريب واكتشف أن بجواره تماما قد نبتت شجرة لها جذع كبير، مدت فوق رأسه غصنا يمتلئ بالبراعم التى لم تتفتح بعد، وتحت هذه الشجرة تعود

أن يلتقى كل مساء بحبيبة القلب التى جلس ينتظر قدومها بين لحظة وأخرى، أحس بحركة قريبا منه فرفع رأسـه رأى أن الشجرة قد صارت رجلا عرف فيه على الفور عامل المقهى الذى جاء يضع بجواره فنجان القهوة، لعن فى سره العامـل الذى ظهر فاختفت فور ظهوره القوارب والعشاق والزهـور والعصافير والموسيقى، التفت شمالا ويمينا لعل أحد هـؤلاء الناس الذين يجلسون إلى كراسيهم فى إعياء ويشربون القهوة قد رأى النهر الذى رآه، لكنهم جميعا كانوا يسدلون ملامحهم فى انطفاء كأن أحدا قد مر منذ قليل مـن هنـا وذر فـوق وجوههم وألبستهم أكداسا من الرماد، وتأكد لديه أنهم جميعـا لم يروا النهر، وأن أحدا منهم لم يشاهد فى حياته نهرا، ومرة أخرى أغمض عينيه وحاول أن يتركهم جميعا ويذهب بمفرده إلى النهر، ويلتقى بحبيبة القلب التى لابد أنهـا الآن تسـبح عارية فى مياهه، لكن أصواتا يخرجها الرجل الذى بجـواره عندما يشرب القهوة أفسدت عليه الحلم، تأكد أن الحبيبة التى جلس ينتظر قدومها تحت الشجرة، سوف لن تأتى أبدا.

التفت فى غيظ إلى الرجل الذى يشرب القهـوة، فـرأى أن الرجل قد صار الآن جملا ضحك فى نفسه مـا أسـرع مـا

يتحول هؤلاء الناس إلى إبل بمجرد شراب القهوة تحسس هو أيضا عنقه الرجل قد أصبح جملا لأنه لم ير نهرا، وأنا يـا إلهى متى أرى هذا النهر اللعين.

كانت نفسه قد عافت القهوة، فترك الفنجان كما هـو دون أن يمسه، وفكر فى أمه، إن لها أيضا عنقا طويلا، إنها تجلس كل صباح إلى المندار، وتمد عنقها من فـوق أسـطح المنازل وتطوف متسللة برأسها بيوت الأقارب والجيران بيتا بيتا، وتفتش لهل أحدهم يخبئ فى دواليب المطبخ وأوانيه، أو تحت الكراسى أو أسـفل الأسـرة، أو فـى حشـو إحـدى المخدرات، طفلة طيبة تنفع عروساً لأبنها.

فلقد أزعج المرأة العجوز أن ترى ابنها يصبح هـذا الرجل الآخر الغريب الذى لم تعرفه من قبل، قلقا، مهمومـا، متبرما بالحديث، عازفا عن الطعام، حتى نومه لم يعد هادئـا كما كان من قبل، صار يقوم من نومه ويطوف أركان البيت، كأن روحا شريرة قد تلبست بدنه.

وأدركت الأم العجوز، أن الولد سيضيع، إن لم تذهب فـورا وتبحث له عن زوجة، هو يعرف مشاعر أمه ولكن

- إن كنت حقا أمى، فهاتى لى بدل الزوجة نهر

ضحك فى رثاء ما ذنب امرأة لم تشاهد فى حياتها نهرا لكن الجمل الذى يجلس بجواره يشرب القهوة، مد له عنقه وفتح شاربا مفلوقا إلى نصفين، وتساءل بلغة الجمال إن كان الحديث موجها إليه، امتلأ قلبه غيظا، وتأكد له أن حبيبة القلب التى تسبح عارية فى مياه النهر قد قررت أن تهجره إلى الأبد، تظاهر بأنه يرد تحية رجل مر من بعيد، سحب الجمل عنقه وعاد لشراب القهوة.

قال لها إن المشكلة هى النهر وليست الزوجة، لكن المرأة العجوز لا تفهم، كيف يستطيع أن يدخل فى رأسها أن أزمته ليست فى بنت طيبة تعثر عليها صدفة بأحد شقوق المنازل القديمة، لو كان كذلك لهان كل شئ، ولأصبحت جميع المشاكل منتهية منذ أول يوم رأى فيه ابنة جار لهم يشتغل بالبقالة، تطل من خلف ضلفة الباب وتبتسم له، يومها ظن لأول وهلة أن جميع الأنهار فى الدنيا قد خبأت منابعها فى بيت هذا الجار، لكن ذلك لم يدم طويلا، ففى اليوم التالى دقوا لها وتدا فى صحن البيت وعقابا لها وضعوا فى عنقها حبلا وربطوها إليه وكان أن تحولت البنت على الفور إلى شاة، ما إن يأتى المساء حتى ترسل ثغاء حزينا يزرع

الوحشة فى ليل المدينة، وصار يدرك أن كل هـذه البيـوت التى تلتصق بالأرض فى مختلف أحياء المدينة تتحول بالليل إلى حظائر، لأن فى كل بيت ثمة صبية صغيرة حاولت يوما أن ترضى فضولها، وتطل من خلف الباب لتعرف فقط ما إذا كان هناك نهر يجرى أمام بيتهم، فكان أن وضعوا فى عنقها حبلا وربطوها إلى وتد فى صحن البيت.

وأمه لا تفهم ذلك، لا تفهم أن البنات فـى مـدينتهم يتحولن عند مغيب الشمس إلى شياه والرجال يتحولون عنـد شراب القهوة إلى إبل لأن أحدا منهم لم يتدارك الأمر ويشاهد لنفسه نهرا قبل فوات الأوان.

هو نفسه كان حائرا لا يجد تفسيرا لهذا القلق الـذى ألم به كأن ارتالا لاحد لها من النمل الأسود تطارده فى كـل مكان، هذه السحابة الثقيلة من الكآبة التى كلما جاء المسـاء أطبقت على صدره وأحس فى كل مرة بأن العالم قد فـرغ من الهواء وأنه سيموت اختناقا، هذه الأشباح التى تزوره كل ليلة وتملأ رقاده برعب الكوابيس، هذه المرارة التى يفـيض بها حلقه كأنهم يفقسون حنظلة فى فمه كل صـباح، وهـذه الشهية المسدودة للعمل والطعام والقراءة فالصحف التى كان

يدمن قراءتها صار لا يطيق النظـر إليهـا كـأن عقـارب وخنافس سوف تقفز إلى وجهه لا فتح صفحة من صـفحاتها حتى أجهزة المذياع التى تناثرت فى كل أركان التى صـار يرعبه الآن مجرد الاقتراب منها كأن حساء سـاخنا سـوف يأتى مدلوقا على وجهة لو حاول لمسها، ثـم أخيـرا هـذا الشعور بالقرف الذى يملأ نفسه ويجعله لا يطيق الجلوس إلى أحد ولا معاشرة الناس ولا الدخول فى نقاش معهم وهو حائر لا يجد تفسيرا لذلك إلى أن لمع فى ذهنه خاطر كأنه البـرق هكذا دون ما سبب فجأة وهو يجلس كما تعود كل عشية إلى المقهى تذكر أنه لم يشاهد فى حياته نهرا وأنه وإن قرأ وسمع كثيرا عن الأنهار، وشاهد أفلاما تنقـل مشـاهدها وتحكـى قصصا حولها إلا أنه لم يحدث أن رأى نهرا مرأى العـين، ونما فى ذهنه يقين كامل بأن كل ما لاقاه فى الحياة من عناء إنما حدث لأنه لم ير نهرا وأن ما يأتيه فى الليل من أشـباح وما يملأ نهاره بأسراب النمل الأسود، وما يملأ حلقـه مـن مذاق الحنظل، إن هو إلا نتيجة لأنه لم ير فى كل أيام عمره مشهد نهر يجرى وأن الأمر كان يختلف لو أن القرية التـى أمضى بها أعوام الطفولة لم تكن فى قلب الصـحراء وإنمـا

بجوار أحد الأنهار أو أن المدينة التى انتقل إليها كان لها موقع على شطان نهر لو حدث ذلك لما تعذب كل هذا العذاب لما هجرته حبيبة القلب التى صنع لها من أوهامه شجرة وجلس عندما ينتظر أن تخرج عارية من ماء النهر ولامتلأت الدنيا من حوله غناء ورقاص وموسيقى ولصار للحياة معنى.

هكذا شعور غريب نما فى ذهنه وصار يقينا ثابتا بأن الحياة لاتكون حياة إلا إذا كان بها نهر، وأن الإنسان لا يكون إنسانا إلا إذا عاش يوما بجوار نهر فما كان للجنة أن تكون جنة لو أن ا   لم يخلق أنهارا تجرى من تحتها،وما صار الجحيم جحيما إلا لأنه قفر من الأنهار.

وأحسن منذ ذلك اليوم أنه صار يملك تفسيرا لكل مظاهر الحياة فى مدينته، ويعرف سببا لكل هذه الأكداس من الذوق الفاسد التى تملأ الدنيا من حوله، والتى لم تعد كما كانت سابقا تثير حنقه وحيرته، إذ كيف يغضب الآن لجلافة عامل المقهى وهو يعلم أن هذا العامل السيئ الحظ لم يشاهد فى حياته نهرا، وكيف يستاء لمنظر جمهور عدائى يملأ صالات العرض صخباً وتعليقات فاحشة وهو يعلم أن هؤلاء المساكين لم يجلسوا يوما واحدا فى حياتهم على ضفة نهر

يتبادلون الأنخاب مع نسائهم، وكيف يثير سخطه منظر صبى صغير يقود سيارة تحولت بين يديه إلى ثور هائج وهو يعلم أن هذا الصبى لم يركب فى حياته قاربا يمضى به بطيئا فوق ماء النهر، وكيف يحزن لمـا وص إليـه مسـتوى هـؤلاء المذيعين وكتاب الصحف والملحنين ومؤلفى الأغانى وهـو يعلم أنهم جميعا لم يروا طوال حياتهم نهرا.

كان قد أطفأ لفافة تبغه، ونظر فى خوف إلى فنجـان القهوة الذى ظل باردا دون أن يمسه وفكر لو أن هذا الشارع الذى يجلس الآن إلى رصيفه قد صار حقا نهرا إذا لتغير كل شئ ولما تحول هذا الرجل الذى بجواره إلى جمـل بمجـرد شراب القهوة، ولما تخلفت الحبيبة التى تعشق السباحة عارية فى ضوء القمر عن المجيء فى موعدها ولما أصبحت ابنـة الجيران شاة تملأ ليل المدينة بالثغاء وقال فى نفسه، ماذا لـو بحث هؤلاء الناس عن بلاد تصـدر الأنهـار واسـتوردوا لبلادهم نهرا، حتى لو كان أقل الأنهار قيمة وأقصرها قامـة بل يكفى مجرد جزء يقتطعونه من أحد هذه النهـار الكثيـرة التى تملأ الدنيا، جزء تافه صغير لا يكلف شـيئا، وأدرك أن ذلك مستحيل، وأنه لابد لأحد ما أن يكتشف أهمية أن يكـون

فى حياة الناس نهر، لابد أن يعرف الناس مأسـاة أن يحيـا الإنسان دون أن يرى طوال عمره نهراً، لعلهم يخرجون يوما فى مسيرة كبيرة يشقون بطن الأرض ويصـنعون لأنفسـهم ذلك النهر، لكن ما يهمه الآن هو أن ينفذ بجلـده وأن يتـدبر لنفسه وسيلة ويشاهد نهراً قبل فوات الأوان.

كان الجمل الذى بجواره يفتح شاربه المفلـوق إلـى نصفين مبتسما ويمد عنقه الطويل يستقبل رجلا، يدعوه إلـى الجلوس ويطلب له قهوة، جاءت القهوة، ومنذ الرشفة الأولى رأى الرجل وقد تحول على الفور أمام عينيه، إلى جمل.

ولأمر ما أحسن بأنه هو أيضا سوف يتحـول بعـد لحظات إلى جمل وأن عنقه يزداد طولا وأن شـفته العليـا سوف تنشق بعد قليل إلى نصفين.

ولم يدر ماذا يفعل

هل يصرخ

هل يطلب من أحد ما عونا

التفت شمالا ويمينا وقد خالج قلبه رعب حقيقى، فرأى وكأن الدنيا تمتلئ من حوله إبلا، قذف فنجان القهوة فـى الهـواء، وانتزع نفسه على الفور من جلسته، ودون أن يحدد لنفسـه

اتجاهات خلع نعليه ووضعهما تحت إبطه ومضى يعدو وسط الشارع أطلق ساقيه للريح غير عابئ بما يحـدث، ومضـى يجرى ويجرى ويجرى، سوف لن يتوقف عن الجرى، لـن يهتم بمغيب الشمس أو شروقها، لن يهتم بمجـيء الليـل أو النهار، لن يهتم بالجوع والعطش، لن يهتم بالجوع والعطش، لن يهتم بما يلقها فى الطريق من جبال وصـخور وأوعـار وصحراء وبحار من الرمال، سوف يعبرها جميعـا، ولـن يتوقف عن العدو أبدا، سيجرى ويجرى ويجرى إلى أن يصل إليه، ففى مكان ما ثمة نهر، سوف لن يتوقف حتـى يلقـاه، ويرتمى عنده، وينتهى برؤيته عذاب السنين الطـوال التـى قضاها دون أن يشاهد فى يوم من أيامها نهراً.

الرمال الناعمة

عندما مد لى يده، يصافحنى بحرارة ويبتسم لى فـى شوق.. لم أعرفه. احتويت يده الرطبة فى يـدى، وتفرسـت مليا فى وجهة، ولكننى لم أعرفه. أين رأيت هذا الوجه مـن قبل؟ علنى التقيت به فى إحدى أسفارى العديدة، أو عله كان زبوناً لا أذكره ترافعت له ذات يوم فى إحـدى القضـايا، أو ربما تعرفت به حديثاً فى جلسة من جلسات المقاهى والأماكن العامة. لكن لقاءه كان حاراً كلقاء الأصدقاء القـدامى، بـل مضى يضربنى على كتفى فى ود، ويشير إلى كرشى متندراً ببدانتى بعد أن كنت نحيفاً كجريد النخل، ورغم أننى صافحته وابتسمت له، إلا أننى خجلت من نفسى لأننى لم أذكره.. ولم أهتد إلى أسمه حتى الآن.

ولم أدركم دقيقة مرت وأنا أغطى جرحـى بتكريـر الأسئلة عن الصحة والأحوال، وكل ما فى عقلى وذاكرتـى من أجهزة تتفحصه وتحلل كلماته وملامح وجهـة نظراتـه وابتساماته. وعندما كان يسألنى عن أحوال أسرتى وزوجتى وكم أصبح عدد أطفالى، لم أستنكر أسئلته كما استنكرها من رجل لا أعرفه.. تقبلت أسئلته بارتياح ومودة، وبدا لى – فى

تلك اللحظة – أننى أعرف، وأن شيئاً عميقاً قد جمعنـا ذات يوم.. لكن أين؟ وبدأ لى أنه قد أدرك جرحى، وأدرك أننى ما زلت لم أتعرف عليه، وأحسست أننى أصـبته بخيبـة أمـل جعلته يبدو فاتراً وزاهداً فى لقائي. وهذا مـا جعلنـى أزداد خجلاً من نفسى، كيف لذاكرتى السخيفة الحمقاء أن تـرفض التعرف على الرجل، الذى كان لا بد أنه كاد صديقاً حميمـاً، وتبدت لى فى تلك اللحظة الكاشفة سخافتى وأنـانيتي. أننـى إنسان تافه يقطع بسرعة خيوط العلاقات التى جمعته بالناس والحياة، وقررت أن أنهى هذا الموقف الحرج، وأن أتخلـص منه بسرعة، أودعه وأمضي.. ونظرت إلى ساعتى تمهيـداً لأن أقول له – أعذرنى فأنا على موعد. فى تلك اللحظة وأنا مطرق برأسى أنظر إلى عقارب السـاعة شـعرت بشـيء كومضة البرق التى تمزق سحب كثيفة سوداء لتضئ ظـلام الدنيا..

وقلت هاتفاً.

- محمود

وكدت رغم الزحـام والنـاس والشـارع المليء بالضجيج أن آخذه بكلتا يدى وأبقيه فى حضنى إلى الأبـد.. فقد مرت سنين طويلة لم أره.

لقد تغيرت كثيراً يا محمود ... حتى لم أكد أعرفك!!

قلتها وكأننى أعتذر بها عن هذا الإبطاء الذى حـدث قبل أن أتعرف عليه.. كان هو بعينه صديق طفولتى وصباى وأيام الدراسة.. محمود. بل كثيراً ما كان معلمـى، علمنـى كيف أحب وطنى وكيف ألتزم به. أول من أكد معنى الوطن فى وجدانى، بل كان قدوة لى عندما جعلنى أواصل دراستى مثله والتحق بكلية الحقوق لكنى أخدم العدالة فى وطنى، كما كنا نقول فى تلك الأيام، وكان يتقـدمنا دائمـاً ... شـهماً، صريحاً، يتقد توهجاً، يتسامح مع كل من أخطأ فى حقه، لكنه لم يكن يتسامح مع من تهاون فى حق وطنه، حتى فى أرض الغربة عندما كنا نواصل دراستنا كان الوطن يملأ وجدانـه، فيجمعنا لنؤسس نادى باسم بلادنا، ويملأ قاعـات الدراسـة بالحديث عن وطنه، ويطوف بنا بين الصحف عليهـا تنشـر المعلومات التى نقدمها لها عن بلادنا.. وبعـد أن تخرجنـا واصر بعضهم على أن يثرى بأسرى الطرق كـان محمـود

وحده الذى ما كان حريصاً فى يوم من الأيام على أن يكـون له بيت فاخر وسيارة فاخرة وأرصدة فى البنوك، كان يختار زبائن بسطاء مسحوقين، بالكاد يحصل منهم على مصاريف مكتبه وقوته الضروري، ولم أدر ما هو رد الفعل الذى حدث فى نفس محمود حتى جعله يترك مهنته القديمة ويصبح رجلا من رجال الأعمال، ومرت سنوات، أسمع أخباره، لكننى لـم ألتق به.

ولكن كيف لم أعرفه..

لا بد أن شيئاً قد تغير فيه.. وعدت أحتويه بنظراتى وأتشبع به، وأتحسس أين يكمن التغيير الـذى لحقـه، كـان محمود هو محمود كما أعرفه، أنيقاً، شعره مصفوف بعنايـة رغم الشيب الذى سرح كثيراً فى فوديه، ملابسه أنيقة، وقامته كما هى طويلة توازى قامتي..

أعترف بأننى إنسان ضعيف الذاكرة وقـد ضـيعت على هذه الذاكرة الضعيفة كثيراً من حقائب السـفر لكنـه لا يعقل أن تمتد إلى أن تسرق منى صديقاً حميماً مثل محمـود، كان دائماً يملأ فكرى، حتى فى عملى كانت شخصية محمود هى التى تملأ ذهنى، وتقود خطاى، وطالما تهيأت إلى يـوم

التقى فيه بمحمود أسرد أمامه همومى واضئ بروحه وكلماته بعضاً من ضباب الطريق.

فهل هذا هو حقاً محمود؟

فتشت فى عنينه فلم أجده. لم تكن هما عينـاه. أيـن توهج محمود وومضته الكاشفة الحارقة عندما ينظر إليه من هذين القنديلين المطفأين.

وعندما ابتسم.. لم تكن هى ابتسامة محمود القديمـة، كانت ابتسامته المشهورة التى تشرق فى وجهك، فتحسن بها طازجة ساخنة كأنفاسه، قد اختفت، حلـت مكانهـا مسـاحة بيضاء تظهر وتختفـى دون مبـرر لظهورهـا واختفائهـا، أحسست بابتسامة باردة، لزجة، تسيل على وجهـى ويـدى وقدمي، حتى أشعرتنى بالاشمئزاز..

هل هذا هو محمود الذى أحببته، وتعلمت منه، وكان قدوة لى ولزملائه. لم يكن محمود، وعندما مضى يحـدثنى عن نجاحه فى مشاريعه الجديدة، وعن صـفقاته ومعاملاتـه وأرباحه، اكتشفت أن وهج كلماته قد انطفأ أنها تأتينى وفـى خفت رنينها، فتشت فى كلماته عن ذلك الألق وذلك الـرنين القديم.. لم أجده.. بدت لى كلماته كقطع العملة الزائفة.

وبدا لى لحظتها أن شيئاً ما قد اغتال صديق طفولتى وصباى وأن عالماً غريباً قد احتواه وامتص دماءه الحـارة، عالم غريب له خيوط دقيقة ناعمة لزجة كخيوط العنكبوت.. اف خيوطه حول محمـود.. وحولـه إلـى ذبابـة يأكلهـا العنكبوت.. وأدركت فى تلك اللحظة، أن ذاكرتى كانت على حق عندما رفضت أن تتعرف عليه.

وعندما ودعنى ومضى يبتلعه الزحام، وقفت تائهـاً مذعوراً، أحسست بخيبة لم أحس بها طوال عمرى تحط فى نفسى وتملأها، حتى كدت أجهش بالبكاء وسط الشارع.. ولم أدر لماذا كنت أحس كأن محموداً كان رفيق سفرى الوحيـد، ثم مات عني.. ابتلعته رمال ناعمة، وبقيـت أضـرب فـى المتاهة وحدي.. كنت خائفاً مذعوراً.. تحول الرصيف تحت قدمى إلى شيء رطب لزج ناعم.. كأنه الرمـال الناعمـة.. وكنت أمتلئ خوفاً من أن تمتصنى تلك الرمال الناعمة.

الشاعر والبحر

امتلأ الفضاء برفيف أجنحة النوارس التى جاءت تقيم أعراسها فوق رؤوسنا فور أن سمعت صفارة الوداع التى أطلقتها سفينتنا وهى تغادر هذا الميناء العربى باتجاه ميناء عربى جديد. مضت السفينة تعارك الموج، وتعبر البحر وغبشة المساء، فى حين ظلت النوارس ترافقها، وفاء لهذه العلاقة التاريخية الحميمة التى تربط بين السفن والنوارس.

راقب محمود هذه النوارس وهى تقيم تجمعاتها الاحتفالية، ترقص وتتواثب وتمنح أجنحة للفراغ الذى يغلف السفينة، وقد وجد فى صحبتها، مؤانسة وألفة أو هكذا بدا لى، فهو مسافر وحيد، تعرفت عليه فى صالة الجمارك عندما كان يشرح للشرطى الذى أراد أن يفتش جيوبه بعد أن فتش حقيبته، أنه شاعر لا يملك إلا قصائده، رأيته فوق سطح السفينة يراقب حركة الطيور، فجئت وأسندت مرفقى فوق السور بجواره، قائلا:

- لعلك اكتشفت زعيم هذه الطيور، وأهديته قصيدة تشيد فيها بمهاراته القيادية والسياسية.

كان قد أخبرنى بأنه سافر إلى عدد من العواصم العربية طلبا للرزق، وأنه أثناء ساعات الفراغ الطويلة، بين عمل كتابى مؤقت وآخر أقصر عمرا، كان يشغل وقته بتأليف قصائد المديح فى الملوك والرؤساء العرب، وكلما زار بلدا عربيا أهدى قصيدة مديح إلى زعيمه، وقدمها إلى الإذاعة بانتظار تلحينها.

- لا تهزأ بزعماء الطيور، فهم أكثر براعة فى تنظيم رعاياهم، من زعماء البشر!

هاهو يؤكد علاقة الحب التى تربطه بكل من يصير زعيما، حتى لو لم يكن من البشر. مضى يتابع حركة الأجنحة فى هبوطها وارتفاعها، ويحرك رأسه وعينيه معها حين تدور، وقد بدا على وجهه صدى الانفعالات التى تصاحب هذه المراقبة. يعبس حينا ويبتسم حينا آخر، دون أن أستطيع أن أعرف سبباً لعبوسه أو لابتسامه.

- تبدو مندمجا مع هذه الطيور وكأنك تعرف لغتها.

- ألا تحس بالأمان وأنت فى صحبتها.

ضغط على كلمة " الأمان " وكأنه يقول بأن هذا هو سر الوجع.

- سوف تفارقنا الطيور عما قليل، فلا يبقى بصحبة الشاعر غير هذا البحر وهؤلاء الركاب.

أثناء الرحلة التى استغرقت أياما كان ثمة متسع من الوقت لأن أسمع منه كل هذه القصائد. اكتشفت أنه لم يترك حاكما عربيا واحدا، لم ينشئ قصيدة فى مدحه، تتحدث عن إنجازاته، وتشيد بتاريخه المجيد، وتتمنى له طول البقاء فى الحكم وفى الحياة. لقد استنفد كل القوافى واستخدم كل بحور الشعر حتى يستطيع أن يفى بالتزاماته نحو هذا العدد الكبير من الملوك والرؤساء، وأبدى أسفا شديدا لأن هناك رئيسا عربيا، أطاح به عساكره، قبل أن يزور بلاده ويهدى القصيدة التى أنشأها فى مدحه الى الإذاعة. قلت لكى أواسيه.

- هناك دائما رئيس جديد.

- للأسف أن اسمه لا يتطابق فى الوزن مع اسم سلفه، وإلا كنت أبدلت اسما باسم وكفانى ذلك عناء تأليف قصيدة جديدة. فمشاعرى نحو الاثنين واحدة.

سألته إن كان شعره الغنائى قد وصل إلى أيدى الملحنين والمطربين فذكر لى بلهجة الزاهد المتعفف أن مثل هذه القضايا تأخذ وقتا طويلا، وأنه يشعر بأن مهمته قد

انتهت عندما كتب القصيدة وأوصلها إلى الإذاعة. قائلا بأن كتابة الأغانى هى هوايته منذ أعوام الصبا، وقد تحول فى السنوات الأخيرة عن كتابة شعر الحب وتفرغ لتأليف الأناشيد السياسية دون أن تجد أغانيه القديمة ملحنا يعرف قيمتها بعد أن فسد سوق الغناء وما عاد قادرا على استيعاب مثل هذا الإنشاد الرصين.

كنت قد تركت مجالسة صحاب آخرين من رفاق الرحلة، وتفرغت لمصاحبة هذا الشاعر. فقد كان شيئا مثيرا أن أجد مواطنا عربيا يتسع قلبه النبيل لحب كل هؤلاء الملوك والرؤساء، على اختلاف أنماطهم وسياساتهم، وتباين أفكارهم وأساليب حكمهم، التى أوصلتهم إلى إشعال الحروب فيما بينهم.

كنا نتخذ مقعدين متجاورين على سطح السفينة، بعيدا عن صخب المقهى والقاعات الداخلية الأخرى التى تزدحم بلاعبى الورق والمتفرجين على أجهزة التلفاز والفيديو. نستنشق رائحة البحر، ونراقب حركة الموج، ونستمتع بمشاهد الغروب وقد تضاءل الظل الذى يفرشه الملوك والرؤساء فوق رؤوسنا فلا شيء حولنا سوى هذا الفراغ

الأزرق الكبير الذى تصنعه زرقة البحر وهى تعانق زرقة السماء. كنت أتوقع أن يمنحه هذا السلام الذى يعبق به المكان، شيئا من طمأنينة النفس التى قضى عمره يبحث عنها. فيكشف طرفا من مشاعره الحقيقية التى تختفى خلف هذه المدائح الملكية. ورغبةً فى أن أستثير هذا الجانب الذى لا تفصح عنه قصائده سألته:

- ألا تعرف كتابة شعر الهجاء.

قال مستنكرا.

- ومن تريدنى أن أهجو لاسمح ا .

- واحداً أو اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الرؤساء والملوك الذين مدحتهم فأهملوا مديحك ولم يعتنوا بتقديم جائزة لك.

التفت خلفه مذعورا، وألقى نظرة ذات الشمال، وأخرى ذات اليمين، وهمس قائلا:

- حتى السفينة لها آذان، فاحذر أن تقول كلاما يجلب المهالك.

ثم عادت نبرات صوته الى طبيعتها وهو يقول:

- إننى لا أطلب منهم جزاء ولا شكورا.

- أنت بذلك تخذل أسلافك من الشعراء العرب الذين يقلبون مديحهم الى هجاء عندما يمتنع الملك أو الأمير عن تلبية طلباتهم.

- ماذا أفعل إذا كان لا مطلب لي.

تأسفت لخموله، وضعف همته، إذ كيف يتصدى الإنسان لمهمة كبيرة مثل هذه المهمة ويعقد لنفسه لواء الشاعر الذى يكرس شعره لتمجيد الملوك والرؤساء دون أن يكون صاحب طموح يدفعه لتحقيق الجاه والثروة، إن لم يكن الحكم والولاية كما هو شأن المتنبي. تأسفت لما وصل اليه حال الشعراء المداحين فى هذا الزمان وقلت ساخرا:

- هل معنى ذلك أن ما تقوله من مديح لاهدف منه ولا دافع له، سوى محبة هؤلاء الحكام.

قال وهو مازال يتلفت:

- طبعا وهل سيواتينى الشعر إن لم أكن أملك عاطفة نحوهم تلهمنى الإنشاد والغناء.

لم أشأ أن أفصح له عن رأيى فى شعره، ولم أقل له أن يبحث عن إلهام جديد لأن إلهاما يكون مصدره هؤلاء الحكام، سوف لن يمنحه إلا هذه القصائد الشائهة. لم أفعل

ذلك، لأننى لا أريده أن ينفر مني، فأنا وبرغم هذا الرعب الذى أحس به مقيما فى عينيه، وإدراكى بأنه لم يقل شعره إلا بدافع هذا الرعب وافتقاده الأمان، مازلت مشوقا لأن أراه يخرج من هذه الأغلفة الرسمية، ويمنحنى لحظة صدق واحدة خاصة ونحن نجتمع فى حضرة هذا البحر، الذى ربطته بالشعراء أعمق الوشائج، منذ أن نسبوا أوزانهم إليه، واقتبسوا من تياراته وهدير أمواجه وحركة مده وجزره بحورهم الشعرية.

كانت الألفة التى نشأت بينى وبينه ألفة حقيقية، جعلتنى لا أرى فيه مجرد صوت، أضمه إلى خانة الأصوات التى ينتمى إليها شعره، والتى أسمعها تأتى من منصات الخطابة، وأجهزة المذياع. كان خلف الشعر الخطابي، إنسان بالغ الرهافة، يذوب مع أشعة الشمس الذائبة فى مياه البحر لحظة الغروب، فيودعها وكأنه يفارق حبيبته، وله وجه دقيق الملامح، تنطبع عليه أصغر وأدنى الانفعالات التى يجيش بها قلبه، وعندما أجده بجوارى يحتسى قدح الشاى وقد استخدم يديه الاثنتين ممسكا به، يخشى أن يسقط منه فوق السطح، أشعر بمدى رقته، وأحس بأنه طفل كان يجب أن ترافقه أمه

كى تعتنى به. وكنت أقول فى نفسي، وأنا أحاول أن أجد جانبا إيجابيا فى شعره، إن هذا الشعر يوحى بأنه رجل تحققت فيه شروط المواطن العربى الذى ارتفع فوق انتمائه الإقليمى ونظر إلى نفسه كمواطن ينتمى إلى هذه الأمة، ولكن العرب شعوب أيضا، فلماذا هذا الولاء المطلق للحاكمين.

كنت قد اعتبرته " عينة " ساقها لى البحر، اختبر من خلالها ما يحس به أولئك المواطنون البؤساء، الذين نراهم على الشاشات الصغيرة والكبيرة، يخرجون من تحت أنقاض البيوت التى هدمتها فوق رؤوسهم عساكر السلطان، يجددون للسلطان البيعة ويقدمون له عهود المحبة والولاء. كانت أمنيتى أن أراه قادرا على اجتراح تلك المعجزة، والمغامرة بقول تلك الكلمة التى تكشف عن حقيقة مشاعره المختبئة خلف أكداس الخوف. ولذلك أوضحت له كيف أننا الآن نركب سفينة تعبر البحار المفتوحة، اثنان من البشر ينتميان الى ذات الأرض واللغة والذاكرة التاريخية المثخنة بالجراح، يلتقيان ليومين أو ثلاثة أيام ويفترقان، يتصادقان ويتصارحان لأنه لا منفعة بينهما، تقضى على عفوية اللقاء والحديث. قلت له بأننى لست حسيبا أو رقيبا ينتوى محاكمة مشاعره

وانفعالاته، فأنا مثله أخفى مشاعرى الحقيقية لحظة الخوف والمجابهة، ولا أفصح عنها إلا عندما أحس بالأمان. وقلت له أيضا، بأننى وسط هذا المدى الأزرق الذى لا يحده حد، والذى يتيح للإنسان فرصة الارتفاع فوق الاعتبارات الدنيوية الصغيرة، ويفتح أمامه أفقا لتأمل دورة الأرض وحركة الأفلاك ونواميس الوجود، حيث تتساوى البداية بالنهاية، وتندمج السلالات البشرية منذ الأزل وحتى اليوم فى كتلة هلامية واحدة، ويجمع خيط الفناء أول الفراعنة بآخرهم، أحس أننى قد تحررت من خوفي، وانتفت الحاجة لأن أزيف مشاعري، أو أدعى بأننى أحب هؤلاء الملوك والرؤساء لأننى فى الحقيقة لا أحبهم، ولا أرى فى الكوارث والنكسات التى حلت بنا، إلا دليلا على فساد أنظمتهم، فلماذا لا يشاركنى لحظة الصدق هذه، ويخبرنى لماذا أرغم نفسه على تزييف مشاعره وحفظها وتعليبها وبيعها إلى الإذاعات العربية، التى لا تأخذها منه إلا لترمى بها فى سلال المهملات.

انتفض من مكانه مذعورا، وكأن أجهزة الأمن العربية، التى غافلت الملائكة، واستولت على إدارة الكون،

قد أرسلتنى مندوبا عنها، لأكشف هذا الشاعر وأخبرها بأسراره. وقف وقد ضاقت عيناه الصغيرتان، ضيقا شديدا وغرز نظراته فى وجهي، يبحث عن سبيل للنفاذ الى حقيقة أمرى. واجهته بنظرة أكثر حدة واستفزازا، فأخذ مقعده، وسار يجره وراءه ويهبط به السلالم حتى اختفى عن نظرى. تركنى وحيدا فوق سطح الباخرة، وذهب يختفى تحت أسقف القاعات الداخلية الصاخبة. وصرت عندما ألقاه بعد ذلك، يزور بوجهه عني، أو يرد باقتضاب على تحيتي، ويمضى وهو يمسك كأس الشاى بيديه الاثنتين، إلى الناحية الأخرى، فأقول فى نفسى متأسفا:

- ما ذنب مواطن عربي، يأكل قلبه الرعب.

قبل أن تصل السفينة الى ختام رحلتها، تحركت عاصفة تقتلع أمواج البحر من جذورها، وتدفعها لضرب السفينة بعنف وقوة حتى تطقطق أخشابها، لاحقته متطوحا أستند على الأسوار وجدران الخشب إلى أن وصلت إليه وسألته ضارعا متوسلا:

- أرجوك أيها الشاعر، قصيدة مديح واحدة أرجوك، تهديها لبوسايدون رب الرياح والبحار، لعله يرأف بنا ويمنحنا الأمان.

الشقيقان

كانت أنسام الربيع تأتي مضمخة بشذى الأشجار التي أزهرت. وكان المجاهدون قد اختاروا بستانا ينامون به تلك الليلة استعدادا لمواجهة جنود الطليان في اليوم التالي.

كان مسعود قد افترش جرده، واختار مكانا تحت شجرة زيتون وحاول أن ينام، ولكنه ظل يتقلب علي جنبه الأيسر حينا وجنبه الأيمن حينا آخر دون أن يذوق للنوم طعما، بجواره كان ينام عاشور، أحد رفاقه في الجهاد وأحد أبناء قريته، أحس عاشور بأن مسعود يعاني من شيء ما، ظن أنه خائف من المعركة التي خطط المجاهدون للقيام بها في اليوم التالي، قال عاشور مخاطبا مسعود:

- يبدو أنك مهموم يا مسعود، إنها ليست المعركة الأولى التي تشارك فيها، إن الأعمار بيد ا ، ثم إن الشهادة هي مطلبنا جميعا فلماذا الخوف؟..

- لست خائفا يا عاشور.

- إذن ما هي المشكلة التي تجعلك مهموما إلى هذا الحد؟..

قال عاشور وهو يتنهد في حسرة وألم:

- إنني أفكر بأخي علي، وبالعار الذي يلحقه بقريتنا، وبذكرى المرحوم والده.

كان مسعود قد ترك أخاه علي لزراعة الحقل ولإعالة والدته العجوز وإخوته الصغار، ولقد تناهت إليه أخبار من القرية بأن شقيقه علي قد ترك الزراعة وانضم إلى جنود الطليان، لقد عينوه في البداية خفيرا لأحد المخازن، ثم ألبسوه البدلة العسكرية وضموه إلى جيشهم ليحارب في صفهم ضد المجاهدين.

قال عاشور محاولا أن يخفف من أحزان رفيقه في السلاح:

- لا شك أنهم أرغموه على ذلك، إنك تعرف شراسة هؤلاء الفاشيست..

قال عاشور فى نبرة غاضبة:

- كان يجب أن يرفض حتى لو هددوه بالقتل، الموت أهون من هذا العار الذي يلحقه بأهله وأبناء وطنه.

لم يدر عاشور ماذا يقول، فالأمر فعلا يدعو إلي الغضب والألم، ولكنه حاول أن يبعث الطمأنينة في قلب صاحبه، قائلا:

- قد يكون الأمر مجرد إشاعة..

- أتمنى أن يكون الأمر مجرد إشاعة، ولكنك تعلم يا عاشور أن الرجل الذي نقل إلينا الخبر صاحب عقل ودراية، أتمنى لو أستطيع أن أذهب بنفسي هذه اللحظة لأستجلي حقيقة الأمر، ولكن ما العمل ونحن على أهبة الاستعداد لإحدى أهم معاركنا مع العدو..

- إذن دع الأمر إلى ما بعد المعركة، وحاول أن تنام قليلا، فإن أمامنا يوماً صعباً.

- وفي حين نام عاشور، ظل مسعود ساهرا يفكر في هذا الأمر الجلل، هل حقا ارتضى شقيقه على نفسه العار والمذلة، وماذا تقول أمه التي كانت فخورة تزغرد وهي ترسل بأكبر أولادها إلي الجهاد، ألم تستطع أن تمنعه من القيام بهذه الفعلة المخزية، إذا ما كان الأمر حقا فإنه سيذهب إليه أينما كان ويقتله، فهذا هو جزاء الخيانة، ظل ساهرا إلى أن شعشع الفجر وسمع صياح الديكة، ورأى المجاهدين يقومون للصلاة، تعوذ با من الشيطان الرجيم، واستغفر ا العظيم، وقام إلى الوضوء والصلاة مع الجماعة، ودعا لشقيقه

بالهداية، وطلب من ا   أن يفرج كربته وألا يجد نفسه في موقف يضطر معه إلى قتل شقيقه ابن أمه وأبيه.

بدأ المجاهدون في سرج الخيول والاستعداد للرحيل حيث يتوجهون إلي الموقع الذي سيواجهون فيه معسكر العدو، إنه موقع يقع على بعد نصف يوم من السفر، وقبل أن يباشروا رحيلهم سمعوا صوت رصاصة أطلقها أحد المجاهدين المكلفين بالاستطلاع والحراسة، ثم رأوه قادما نحوهم يدفع أمامه بجندي من جنود الأعداء، كان مسعود قد امتطى جواده ووقف في حالة تأهب واستعداد يستطلع جلية الأمر، لم يستطع أن يتبين على البعد ملامح الجندي الإيطالي، وما إن رآه يقترب حتى قفز من فوق جواده وذهب يخترق صفوف المجاهدين، فقد عرف أن هذا الجندي ليس إلا شقيقه علي يرتدي بدلة العساكر الطليان، كان يريد أن يطلق عليه النار وهو يراه في هذه البدلة ولكن بقية المجاهدين أوقفوه ومنعوه من الوصول إليه وبدءوا يتعرفون إلي سبب مجيئه إليهم في هذه الساعات الأولى من الصباح، وفي زحمة الأسئلة والاستفسارات بدا علي يسرد للمجاهدين قصته، لقد أرغموه فعلا على الالتحاق بجند الطليان، ولكنه منذ اليوم الأول

لالتحاقه صمم على أن يكيد لهم ويخدم حركة الجهاد من داخل خطوط الأعداء، وبدأ يتسقْط الأخبار حتى عرف أن الطليان ينصبون كمينا للمجاهدين، ولذلك فقد أعدوا أنفسهم ووزعوا جنودهم للاختفاء خلف الأحراش التي تقع بالطريق الذي يؤدي إلي المعسكر لكي ينقضوا على المجاهدين في حين غفلة قبل لحظة وصولهم إلى موقع الأعداء، ولقد أبدى استعداده لأن يتولى الحراسة هذه الليلة لكي يستطيع أن يهرب تحت غطاء الليل، ويخبر المجاهدين بالكمين الذي أعدوه لهم. وهذا ما حدث فما أن حل الظلام حتى تسلل هاربا وصار يعدو طوال الليل إلي أن اهتدى إلي مجموعة المجاهدين التي تتولى الاستطلاع والحراسة.

تقدم أحد شيوخ المجاهدين يشكره ويحيي إخلاصه ووطنيته، ويطلب منه الانضمام منذ الآن إلي صفوف المجاهدين، أما مسعود فقد وجد الدموع تهطل من عينيه وهو يردد في سعادة وارتياح:

- الحمد .. الحمد ل له..

قالها وهو يفتح ذراعيه على وسعهما يحتضن شقيقه علي..

الصحيفة

(غرفة الجلوس فى بيت عائلة انجليزية الوقت مساء يوم بارد الرجل يجلس إلى منضدة وسط المسرح، يرفع أمامه صحيفة تحجب وجهه عن المشاهدين فى الصالة. من وقت إلى آخر يأخذ رشفة من فنجان الشاى الذى أمامه. زوجته امرأة كبيرة فى السن. تدخل من باب فى إحدى جوانب المسرح، تأخذ طبقاً فارغاً أمام الرجل. ترتدى فستانا منزليا بسيطا وتعقد حول وسطها مريلة المطبخ. فى الجانب الأيسر مدفأة تشتعل بالحطب وبجوارها كرسى فوتيل، الرجل فى عمر يقارب عمر زوجته)

هي: (تأخذ الطبق الذى أمام الرجل) هل أعجبتك؟

هو: (بلا حماس) نعم يا عزيزتي. نعم لقد أعجبتني!

هي: (بحماس شديد) إذن ستكون هذه وجبة نتناولها كل أسبوع، ما رأيك؟

هو: لا لا تقولى ذلك، تعرفين جيداً أننا لا نستطيع أن نجعلها وجبة أسبوعية (لحظة صمت) الأفضل أن تبقى على هذا الحال، لكى تبقى دائماً لذيذة (لحظة صمت) الروتين سيقتل طعمها!

هي: ولكن لن يقتل رائحتها، فدائما لها نفس العبير!

هو: تعرفين ما هو الروتين، عندما يصبح الشيء روتينياً فقد انتهى!

هي: (بصوت يشوبه بعض الأسى) لقد كانت هذه وجبتنا المفضلة التى نتناولها كل يوم فى السنين الأولى من زواجنا أليس كذلك يا عزيزي!

هو: نعم، نعم، فى تلك الأوقات المبكرة!

هي: (فى طريقها إلى خارج الغرفة) لعل الوقت قد تأخر بنا الآن (لحظة صمت) هل أنت متأكد من أنها أعجبتك؟

هو: نعم يا عزيزتي، وإلا ما كنت أكملت الطبق!

هي: حسناً إذن. (تأخذ الطبق إلى الخارج وتعود بعد أن خلعت مريلة المطبخ، تجلس فى كرسى الصالون قريباً من المدفأة، يقلب هو الصفحة الأولى من الجريدة).

هي: هل من جديد فى صحيفة اليوم أيها العزيز.

هو: لا جديد، إنها هى هي، كما كانت بالأمس، وكما هى غداً.

هي: لماذا إذن تصر على قراءتها كل يوم أيها العزيز!

هو: لأنها تكتب بطريقة مختلفة كل يوم، نفس الشيء ولكن بأسلوب مختلف.

هي: هل هذا ما يسمونه سحر الكلمات؟ هل هذا ما يجعلك تقرؤها كل يوم؟

هو: بالضبط، هذا ما يجعلنى أقرؤها كل يوم يا عزيزتي!

هي: (بدلال) ولكنك تعاملنى بطريقة مختلفة!

هو: ماذا تقصدين يا عزيزتي.

هي: لو قلت شيئاً مرة، فإنك لاتنصت إليه لو أعدته مرة أخرى.. أليس كذلك؟

هو: سأنصت إليه، بالتأكيد سأنصت إليه لو قلته بأسلوب مختلف يا عزيزتي؟ هل تفهمين؟

هي: نعم أفهم، ولكننى لا أملك ما يسمونه سحر الكلمات، ولا أريد أن أملكه، فهو يبدو كما لو أن الإنسان عليه أن يتحول إلى ساحر أو ساحرة، وأنا لا أريد ذلك، عندما كنت طفلة صغيرة. أستمع إلى حكايات الأطفال كنت أتمنى فعلاً أن أكون تلك الساحرة التى تملك قوة سحرية

تحت تصرفها، ولكن هذه الفكرة لم تعد تروق لى بعد أن كبرت!

هو: إنك رائعة كما أنت يا عزيزتي!

هي: ولكنهم يملكون هذه القوة السحرية التى تجعلهم يجبرون الناس على قراءة ما يعيدون كتابته كل يوم.. أليسوا هم كذلك يا عزيزي!

هو: (مستغرق فى قراءة الصحيفة) إنهم كذلك يا عزيزتي!

هي: (كأنما وقعت على اكتشاف) ويبيعون الأسلحة إلى إسرائيل أيضاً.. أليسوا هم كذلك؟

(يقلب صفحة أخرى ولا يقول شيئا)

هي: إنهم يبيعون الأسلحة إلى إسرائيل أيضاً.. أليسوا هم كذلك!!

هو: (بنفاد صبر) هذه مسألة أخرى!

هي: أعنى فى الصحيفة.. أليس هذا ما يقولونه فى الصحيفة كل يوم!

هو: نعم يا عزيزتي، إنهم يفعلون ذلك، إنهم يبيعون أسلحة إلى إسرائيل، إن هذا فى الصفحة الأولى، وأنا الآن أقرأ الصفحة الرابعة!

هي: هل بدأت قراءتها من الصفحة الأولى كما هو العادة!

هو: نعم يا عزيزتي.. من الأولى كما هى العادة!

هي: ماذا تقرأ فى الصفحة الرابعة!

هو: أين تسهر هذا المساء!

هي: هل تقرأ هذا أيضاً!

هو: وهل تريديننى أن أبقى جاهلاً بما تعرضه المسارح ودور العرض هذا المساء!

هي: (باشمئزاز) إنها تمتلئ بالنماذج الشاذة!

هو: ماذا تعني!

هي: أعني أن موضوع أفلامهم ومسرحياتهم هذه الأيام صار يمتلئ بالحديث عن النماذج الشاذة!

هو: إننى لا أهتم مطلقاً بهذه الأشياء!

هي: (بغضب وحدة) لماذا تقرؤها إذن!

هو: (مرتبكا) ماذا؟

هي: (بنفس الحدة) لماذا تقرؤها إذن؟

هو: لأعرف ماذا يعرضون!

هي: ولكنك تدرك، كما أدرك أنا، أننا لم نعد نذهب إلى السهر خارج البيت!

هو: ماذا تقصدين يا عزيزتي، إننا دائماً تخرج للسهر خارج البيت!

هي: (تترك الكرسي.. وتذهب نحو الرجل) متى كانت آخر سهرة ذهبنا إليها.

هو: منذ أسبوع مضى

هي: (بلهجة المحققين) وإلى أى مكان ذهبنا؟

هو: إلى المسرح!

هي: إلى أى مسرح ذهبنا!

هو: الاولدفيك.

هي: وما هى المسرحية التى ذهبنا كى نشاهدها؟

هو: عطيل.

هي: (بلهجة هادئة وقد عادت إلى مقعدها) كان ذلك منذ خمسة عشر عاماً يا حبيبي!

هو: لالا تقولى هذا، لقد كان ذلك منذ أسبوع واحد مضى، أنا واثق مما أقول!

هي: (بإشفاق حقيقي) ما أسرع ما يمضى الزمان أيها العزيز، وخمسة عشر عاماً يمكن أن تلوح وكأنها أسبوع واحد..

هو: (وقد بدا التأثر واضحاً فى لهجته) ولكن الصورة لا تزال واضحة فى ذهني، أذكر عندما قتل زوجته ديدمونة، وعندما وضع الوسادة فوق وجهها حتى ماتت اختناقاً فى سريرها..

هي: (وكأنها اشتمت قصداً سيئاً من كلامه) ولكنه ندم كثيراً على فعلته بعد ذلك؟

هو: نعم، نعم، لم أنس شيئا من ذلك، لقد كلفته حياته!

هي: كانت حقاً فترة دموية كما يقول الحوار فى آخر المسرحية!

هو: إذن فقد كانت الأسبوع الماضي!

هي: لا يا عزيزي، إن الخارج الوحيد الذى نذهب إليه هو الكنيسة يوم الأحد، والحديقة عندما يكون النهار مشمساً، هذا هو الخارج الوحيد الذى نذهب إليه.

هو: كيف تقولين ذلك فى حين أننا منذ فترة بسيطة مضت حضرنا حفلاً كبيراً، كنت أنا أرتدى بدلتى الرمادية، وكنت أنت ترتدين ثوباً ناصع البياض، كان هناك عدد من أكبر وأهم شخصيات المجتمع!

هي: (وقد سرحت بأفكارها مع كلماته) نعم.. نعم، وزراء ومدراء وأعضاء برلمان وضباط من الرتب العالية فى الجيش، كل واحد كان يبتسم لنا ويأتى إلينا مصافحاً ومهنئاً، كل شخصيات المجتمع المشهورة كانت هناك، حتى نجوم المسرح والغناء حضروا الحفل!

هو: وصحفيون، أفضلهم وأكثرهم شهرة كانوا هناك، وأذكر الآن أضواء كاميراتهم كيف كانت قوية إلى حد أنها كادت تحرق عيني!

هي: لقد كتبوا عنا فى كل الصحف التى صدرت فى اليوم التالي وهناك كانت صورتنا، أنا وأنت، وأنت تضع ذراعك حول كتفي، وكان العنوان حدث الأسبوع؟!

هو: والشمبانيا.. كان كل الناس يشربون شمبانيا!

هي: وكتبوا على لسانك فى الصحيفة تقول إن ذلك اليوم كان أسعد أيام حياتك!

هو: أفضل فرقة موسيقية فى المدينة.. جاءت لتعزف لنا ذلك اليوم!

هي: نعم نعم، لقد رقصنا معاً. وغنينا، وشربنا، وضحكنا كثيراً كثيراً، كم كان ممتعاً كل ذلك.. كم كان ممتعاً!

هو: ما أكثر ما ابتهجنا ذلك اليوم، وكم كنت أنا وأنت سعداء إلى أبلغ حد (لحظة صمت كأنهما يستعيدان بهجة ذلك اليوم) كم يوم مضى على ذلك الحفل؟ عشرة أيام؟!

هي: لا لا يا عزيزى ليست عشرة أيام، لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد مضى.

هو: كيف تقولين ذلك، إنها مجرد فترة قصيرة، فأنا أذكر كل تفصيلة صغيرة من تفصيلات ذلك الحفل، وكذلك أنت!

هي: كل شيء ممكن يا عزيزي. إن لك حساً قوياً بتلك القدرة الهائلة التى يمرق بها قطار الزمن السريع، فلا تجعل الأمر يزعجك، استمر فى قراءة صفحة الترفيه، لا تجعل هذا الحديث يفسد عليك ترفيهك!! (لحظة صمت طويلة) قل لي.. عندما تصل إلى صفحة الوفيات أيها العزيز!

هو: (بشيء من الضيق) إنها فى الصفحة السادسة عشرة، ولن أصل إليها فيما تبقى لى من العمر لو استمريت تقاطعيننى بهذه الصورة!

هي: نعم يا عزيزي، لم يبق من أعمارنا، إلا القليل، ولكن لماذا تريدنى أن أبقى صامتة، هل لأننى ذكرت إسرائيل.

هو: لا، لم يكن ذلك هو السبب!

هي: لا بد أن يكون ثمة شيء جديد فى صفحة الوفيات!!

هو: نعم يا عزيزتى ربما لأنها الصفحة الوحيدة التى تكتب دائماً بنفس الأسلوب، كل يوم نفس الكلمات، إن تحريرها أكثر سهولة من كل الصفحات الأخرى!

هي: هل يأخذون أجراً على كتابتها!

هو: من؟

هي: الناس الذين يكتبونها!

هو: نعم إنهم يأخذون أجراً يا عزيزتي.. نعم!

هي: ويبيعون الأسلحة إلى إسرائيل.. ألا يفعلون ذلك يا عزيزي!

هو: نعم إنهم يفعلون، كم مرة يجب أن أقول لك ذلك!

هي: ولمن أيضاً يبيعون الأسلحة!

هو: إلى مختلف بلاد الدنيا!

هي: ويبيعون الأسلحة إلى جنوب إفريقيا أيضاً

هو: إنهم يفعلون، إنك تعرفين كل شيء حول هذا الموضوع!

هي: أليس هذا هو العنوان الرئيسى فى الصحيفة لعدد اليوم!

هو: لا يا عزيزتي، إنهم يحتفظون به للعدد الذى يصدر غداً!

هي: لماذا يا ترى يبيعون الأسلحة، ماذا تقول الافتتاحية حول هذا الموضوع!

هو: إنهم يصنعون كميات كبيرة منها، فلا بد أن يجعلوا أحد الناس يشترى شيئاً منها!

هي: ويصنعون الحروب، إنهم يبيعونها من أجل الربح إذن!

هو: لا أظن ذلك، الافتتاحية لم تذكر إطلاقاً هذا الكلام!

هي: ماذا تقول الافتتاحية إذن؟

هو: ما هذا الوهم الذى سيطر على ذهنك اليوم. لقد أصبتنى بالارتباك، يجب أن أعيد قراءة هذا العمود، لم أستطع أن أفهم ماذا يريد الكاتب أن يقول. (تمنحه.. لحظة كى يواصل القراءة)

هي: (دون أن تنظر إليه) ما الذى جعلك تبتسم؟ لأى شيء يا ترى أنت تبتسم!

هو: (بخوف) لم أبتسم.

هي: (فى غضب) لقد ابتسمت!

هو: كيف عرفت ذلك؟

هي: ليس ضرورياً أن أذهب إليك وأضع عينى فى وجهك لأعرف إن كنت تبتسم أم لاً، فقد تربت لى من خلال هذه السنين ملكة أستطيع أن أعرف بها كل تصرفاتك حتى لو لم أرك!

هو: قد لا يكون ابتساماً!

هي: ما هو إذن؟

هو: لا أعرف!

هي: (تذهب نحوه) أنا واثقة من أنها كانت ابتسامة، ابتسامة غمرت وجهك كله. ما الذى جعلك تبتسم؟

هو: لا أعرف على وجه اليقين.

هي: هل هى نكتة فى الصحيفة جعلتك تبتسم؟

هو: لست متأكداً.

هي: هل كنت تحلم؟

هو: لا أدري!

هي: هل كان فى الأمر كابوس؟

هو: لا أعلم!

هي: أنت تعلم أنك لا تستطيع أن تبتسم دون أن تجعلنى أنا أيضاً أعرف سبب هذا الابتسام.. فهيا قل لماذا ابتسمت؟!

هو: لعله. لعله..

هي: (مقاطعة) لعله ماذا؟

هو: لعله التعب!

هي: من القراءة؟ (عادت إليها لهجتها الهادئة) لماذا لا تترك الصحيفة إذن!

هو: لا أستطيع، تعرفين جيداً أننى لا أستطيع، إن علي أن انتهى من قراءتها كاملة!

هي: حسناً يا عزيزي، سأحضر إليك نظارة القراءة، فهذا ما تحتاجه الآن!

(تذهب مسرعة وتحضر إليه نظارة سوداء، تجلس إلى مقعدها، فى حين يقلب صفحة ثم أخرى)

هي: لقد قفزت صفحتين مرة واحدة، هل هما نقد الكتب!

هو: نعم.. إنهما كذلك!

هي: إنك دائماً تمتنع عن قراءة هذا الباب، ولكنك لم تقل لى لماذا؟

هو: لأنهم أبداً لا يكتبون هذا الباب بلغة إنجليزية، إنهم لا يكتبون الموضوع إلا ونصفه بالفرنسية أو اللاتينية القديمة!

هي: ولكننا نحب هذه الصحيفة، إنها تغطى الأحداث بطريقة عظيمة، أحداث الوطن وأخبار العالم، أخبار الفن وأخبار الرياضة، المواليد والأموات، الزواج والطلاق، كل شيء!

هو: إنها بالتأكيد أفضل الصحف جميعاً. (لحظة من الصمت تمر، ثم تبدأ هى فى الضحك، ثم يزداد الضحك علواً، إلى أن يصبح أقرب إلى الهستيريا)

هو: ماذا هناك؟

هي: مضحك؟

هو: ما هو المضحك؟

هي: هل تعرف ماذا فعلت يوم أمس؟

هو: ماذا؟

هي: (بضحك هستيري) مضحك إلى حد فظيع!

هو: (يتوجس خوفاً) ماذا تقولين؟

هي: لقد كنت تمسك بالصحيفة وهى مقلوبة!

هو: (باندهاش وذعر حقيقيين) ما هذا الذى جئت تقولينه!

هي: لقد كانت الصحيفة مقلوبة، وكنت تقرأها كما لو كانت فى وضعها السليم! (يرمى بالصحيفة بعيداً، يتحسس بيده المنضدة. يقع فنجان الشاى على الأرض. يبدو وجهه للمشاهدين واضحاً. يدركون الآن أنه كان رجلاً أعمى. يذهب باتجاه المرأة. يتكئ على حافة المنضدة).

هو: (منفجراً) إنك تكذبين.. تكذبين!

هي: إنها حقيقة.

هو: لقد خدعتني.. خدعتني. كان يجب أن أعرف. كان يجب أن تقولى لى إننى أمسك الصحيفة بطريقة خاطئة، لا أن تجعلينى أستمر فى قراءتها وهى مقلوبة لقد خدعتني، خدعتني، إننى أختنق، خدعتني. إننى أختنق (يحاول أن يفك ربطة عنقه، تذهب لتساعده).

هي: كنت سأقول لك، ولكن الوقت كان متأخراً عندما أدركت أنك تقرأها بطريقة خاطئة، كنت قد قاربت من الانتهاء من قراءتها! (تلتقط فنجان الشاى الذى سقط فوق الأرض) لا تحمل هماً يا عزيزي، كان هذا بالأمس فقط، أما اليوم فقد كان كل شيء على ما يرام!

هو: قد لا يكون الأمس فقط، قد يكون نفس الشيء حدث اليوم، قد أكون كل هذه السنين أقرأها مقلوبة.. من يعرف؟ من يعرف؟

هي: لقد حدث ذلك مرة واحدة.. بالأمس فقط.

هي: كيف حدث ذلك؟

هي: أعترف بأن الغلطة كانت غلطتي، فعندما وضعت الصحيفة على عتبة الباب كما جرت العادة نسيت أن أحافظ على نفس الوضع الذى كنت أضع به الصحيفة كل يوم، رميتها كما اتفقت وجئت أنت وأخذتها معتقداً أنها وضعت بنفس الطريقة القديمة!

هو: وكيف تسمحين لنفسك بارتكاب غلطة فظيعة مثل هذه!

هي: كل يوم ولمدة خمسة عشر عاماً، آخذ الصحيفة بعد أن تكمل قراءتها، وأضعها هناك على عتبة الباب لتقرأها فى اليوم التالي نفس الصحيفة، بنفس الطريقة، دونما خطأ واحد كل هذه السنوات، ثم تأتى اليوم لتسمى هفوة بسيطة مثل هذه غلطة فظيعة!

هو: هل أنت غاضبة مني!

هي: أبداً يا عزيزى لست غاضبة (لحظة صمت) هل أنت غاضب مني!

هو: لست غاضباً يا عزيزتى منك.. (تذهب هى فى بطء وتلتقط الصحيفة من فوق الأرض).

هو: لا أستطيع أن أقرأ شيئاً فيها!

هي: اترك الأمر اليوم، وغداً ستقرأها وكأن شيئاً لم يكن (تذهب نحو عتبة الباب ثم تقف) سوف نفكر فى موضوع مليء بالإثارة لنجعله العنوان الرئيسى للصحيفة غداً.

هو: أين هى (يتحسس المنضدة) أين هى الصحيفة؟

هي: سأضعها قرب الباب!

هو: هاتها (ويمد إليها يداً ترتعش).

هي: (وقد أحست بالخطر فى لهجته.. تتردد فى إعطائه الصحيفة).

هو: (بتصميم) هاتها (مازالت يده ممدودة).

(تتردد مرة أخرى، ثم تتقدم منه فى بطء شديد. تضع الصحيفة فى يده. يبدأ هو فى تمزيق الصحيفة إلى قصاصات صغيرة، تقترب هى حتى تقف بجانبه. بعناية شديدة تأخذ الصحيفة الممزقة إلى قصاصات، تذهب بها إلى نار المدفأة، تضع القصاصات فى النار وتجهش بالبكاء وهى ترى هذا الوهم الذى صنعته مع زوجها لمدة خمسة عشر عاماً قد تحطم اليوم. فى حين وقف هو ينظر إلى البعيد بعينين انطفأ نورهما فى حزن وصمت!)

(ببطء شديد ينزل الستار)

الطاحونة

تيك تاك.. تيك تاك ... تيك تاك..

وترتفع دقات الطاحونة فى جو البلدة الهادئ الرزين فى إيقاع سريع ومنتظم ورتيب كدقات قلب الإنسان عندما يكون سليماً، معافى البدن والروح والحواس الخمس.

والطاحونة لا تذوق طعم الراحة إلا عندما يأتى الليل بسواده وأحزانه وكلابه الضالة، ساعتها فقط، يصمت قلبها عن الخفقان وتكف رحاها عن الدوران وتهدأ عضلاتها الحديدية عن الحركة، وتستغرقها نومة طويلة عميقة كأحلى ما يكون النوم. أما النهار بصباحه وظهيرته ومسائه فهى أبداً تهدر تلوك حبوب الشعير والحنطة، وتنفث دخانها الأسود فى سماء البلدة كأنه رياح الغضب، ربما هو غضب على هؤلاء الناس الذين يكدسون فى كل لحظة الحمول والزكائب الكثيرة المنفوخة المليئة بالحبوب، وكلهم يدقون الأرض بعصيهم وأقدامهم ويصرون إصراراً رهيباً على أن يكون طحينهم جاهزاً فى نفس النهار.

تيك تاك.. تيك تاك... تيك تاك.

طول النهار وهى تتهدج..

تحول الشعير إلى دقيق ناعم..

وصمت البلدة إلى ضجة رتيبة..

والتعب إلى حبات عرق لزجة تنبثق على جبين عبد المولى وعلى عنقه وذراعيه. وتبتدع لها أنهاراً وسط غابة الشعر على صدره، مختلطة بذرات غبار الدقيق المتطاير فى جو الطاحونة، والتى يكون خاتمة مطافها دائماً هيكل عبد المولى لتستقر فوقه.

والناس فى البلدة يتشربون كل نهار تكتكات الطاحونة، طبلات آذانهم تعودت أن تستقبل نداءاتها وثرثراتها اليومية التى تبدأ مع شروق الشمس وتنتهى مع غروبها. وعندما يحدث وتتعطل الطاحونة أثناء النهار فإن كل كبير وصغير، وكل رجل وامرأة فى البلدة لا بد وأن يفتقد صوت الطاحونة. ليس هذا فقد بل ويشعرون جميعاً أن شيئاً ما ينقصهم ويظل هذا الشعور يلازمهم لا يفارقهم إلا عندما يعود إلى الطاحونة نبضها وتسترجع دقاتها التى كثيراً ما أحس بها هؤلاء الناس كأنها لغة سرية وغير مفهومة تحكى بها هذه الطاحونة قصة أبدية، سرمدية، لا أحد يدرى متى بدأ ولا متى تنتهى، ولا ما هو معناها، ولكنها قصة

يتعاطفون بقلوبهم معها، ويرتاحون إليها وهم يسمعونها كـل صباح.

- تيك تاك.. تيك تاك.

وتتعالى الدقات الرتيبة، تعلن عن مكـان الطاحونـة الواقع ما بين العشرة متاجر الصغيرة التى تشكل كل ثـروة البلدة القومية من حوانيت. ومن حولها كانت ترتفع الحيطان القصيرة لمنازل القرية وهى عادة ما يكون الـبعض منهـا متصدعاً، أو منبعجاً، ذات لون أصفر، هذا إذا كانت مبنيـة بالطين. أما إذا كان أصحاب البيت من الأكابر وكان البيـت مبنياً بالجبس والياجور والأسمنت ولونه أبيض.. فهذا عـادة ما يكون بياضه قد استحال إلى سواد كريه فى لون الغربان، ذلك لأن أطفال البلدة يعتبرون الجدار الأبيض، كنزاً اكتشفوه من حقهم أن يتصرفوا فيه علـى الوجـه الـذى يريدونـه، فيمسكون قطع الفحم بين أصابعهم، ومن ثم يحيلون الجـدار إلى تجارب فى الرسم والخط والإنشاء.

وكثيراً ما تكون هذه الجدران بمثابة الجرنـال فـى البلدة، فأى حدث مهم جرت وقائعه بالبلدة تجده فـى نفـس اليوم مسطراً بالبنط الأسود العريض فى صدارة الجدار حتى

القصائد التى يقولها معتوق بن سعد ا مفلسفاً بها الأحـداث أو ساخراً من رؤساء الدول والحكومات كقصيدته التى سخر فيها من أنف ديجول وصلعة خروتشوف، والأخرى التـى تدور فى فلك الأحداث المحلية، كلها قد تجدها قد سجلت فى نفس اليوم على صفحة الجدار، ليس هذا فقط بـل وأحيانـا تجرى على هذه الجدران مطارحـات ومسـاجلات حاميـة الوطيس كأن يكتب أحد الأطفال بخط طفولى سباً بذيئاً يوجهه إلى أحد الأطفال. ويأتى الأخر فيمسح السطور المكتوبة ومن ثم يلتصق بهيكله الصغير على الجدار حتى يتسـخ جلبابـه بالفحم وينهمك فى رسم الحروف والكلمات حتى إذا ما أتـى الطفل الآخر وجد فى انتظاره طبخة طازجة مما لذ وطـاب من أصناف الشتائم والسباب. فهى صحيفة متكاملة لا تختلف عن أى صحيفة فى العالم. لها شعراؤها وكتابهـا ونقادهـا الكبار.

ومن وراء هذه المبانى تمتـد السـوانى بشـجيراتها ومزروعاتها الجافة.

ونخيلات تغرس رؤوسها فى الأفق كأنهـا تسـتنجد بالسماء.

ومنازل بعيدة، متفرقة.. تبدو من بعيد وكأنها تاهـت عن البلدة

وعندما يتعالى تهدج الطاحونة من وسـط البلـدة.. تكتاك تيكتاك. تيكتاك تيكتاك تيكتاك. تبدو تماما كأنها قلـب فى هذه البلدة النابض..

بل هى بالفعل قلب البلدة النابض فكل حركـة تكـاد تكون هى مصدرها فمن قوافل الناس الذين يأتون بشـعيرهم وقمحهم ومؤنة عيالهم فى أشوالات وزكائب على ظهورهم، إلى قوافل الجمال التى كانت النهار وما طوله وهـى تقـوم وتقعد فى الوسعاية التى أمام الطاحونة، تبرك لتضع حمولها من طعام وشعير.. ثم تعود لتحمل نفس الحمول وقد تحولت إلى دقيق ناعم...

- تيك تاك.. تيك تاك.. تيك تاك.

والطاحونة قد تتعطل لمدة ساعة أو سـاعتين أثنـاء النهار لعطب حدث فى أجهزتها سرعان ما يصـلحه عبـد المولى، أو لغيره من الأسباب البسيطة فهذا شئ عادى إلـى حد ما. أما إذا تعطلت النهار بطوله، فهذا غالباً ما يعنـى أن شيئاً خطيراً هاماً قد حدث وهذا النوع من التعطل لم تتشرف

الطاحونة – خلال تاريخها الطويل – باستقباله سوى ثـلاث مرات. والناس فى البلدة يحفظون عن ظهر قلب هذه المرات التى حدثت فيها عملية التعطل الغريبة. ليس هذا فقـط بـل ويذهبون إلى أكثر من ذلك بأن يجعلوا من هذا اليـوم التـى تعطلت فيه الطاحونة علامة زمنية بارزة يستدلون بها علـى الأحداث التى وقعت فى تلك الفترة، كأن يسأل أحدهم الأخر سؤالاً من تلك الأسئلة التى تتراقص عادة على شـفاه أهـل البلدة مثل سؤاله عن بقرته متى ولدت عجلها؟ فسيجيبه على الفور معيناً له يوم ميلاد العجل بتعطيل الطاحونة كأن يقول: ولدته بعد يومين من تعطيله الطاحونة الثانية.

ويذهب السائل وقد تشبعت كل خليـة فيـه بـالفهم والاقتناع التام... فمن لا يعرف الوقت الذى اسـتقبلت فيـه الطاحونة تعطيلتها رقم اثنين.

فى الثلاثة نهارات التى تعطلت فيها الطاحونة كانت الأسباب وجيهة وهامة، فقد تعطلت المرة الأولى لأن والـد عبد المولى.. العجوز.. سئم قعدته الباردة فى إحدى زوايـا البيت فآثر السفر إلى السماء، وغادر هذه الدار منـتقلاً إلـى جوار ربه.

والمرة الثالثة عندما اتفقت البلدة على القيام بإضراب شامل، وقفل أصحاب الحوانيت حوانيتهم، وعطل عبد المولى طاحونته عن العمل، وذهبوا يومها عبر الشـوارع يهـزون أيديهم ويضربون بخطواتهم فى غضب وهتافاتهم تتصاعد فى صوت عريض أجش صاخب، ينـادون بمـوت الاسـتعمار وتحرير الجزائر فقد كان الإضـراب مـن أجـل الثـورة الجزائرية.

والمرة الثالثة كانت عندما اسـتبدل عبـد المـولى للطاحونة رحى جديدة بدلاً من رحاها القديمة التـى هرمـت وتآكلت وبادت ولم تعد تطحن ناعماً، مما جعل كل الناس فى البلدة يتذمرون من أجلها، ويهددون عبد المولى بأنهم سوف يقاطعونه إذا لم يجدد رحى طاحونته ويعودون إلى الطحـن على الرحى الحجرية القديمة، وكانت الإنذارات شديدة اللهجة بحيث لم تترك لعبد المولى فرصـة التلكـؤ أو المماطلـة، فسرعان ما جاب رحى جديدة أوصى عليها مـن المدينـة، وتعطلت الطاحونة نهاراً كاملاً لهذا السبب، ولا تزال الرحى القديمة بكلتا ضلعتيها مرمية أمام الطاحونة، وكثيراً ما انتهز

الأطفال فرصة انشغال عبد المولى وأتوا يتراقصون ويلعبون عليها. هذه كانت أسباب التعطيلات الثلاث..

وعبد المولى صاحب الطاحونة لا هو بالسـمين ولا النحيف، ولا بالعجوز ولا الشـاب، ولا هـو بالقصـير ولا الطويل.. فهو متوسط فى كل شيء، شنبه طويل، ووسـطه محاط دائماً بحزام من الكتان الأبيض يلفه حولـه عشـرات اللفات حتى يظل بارزاً بثناياه الكثيرة.

وعلى ذراع عبد المولى تتـزاحم حيتـان ونجـوم وعصافير وغزلان وبنت رموشها كحيلة وحواجبها (تقـول هللة) مع خطوط أخرى كلها من الوشم الأخضـر.. الـداكن الاخضرار.. وربما السبب فى كثرة هذا الوشم أن أمة كانت صنعتها" وشامة" فلم تجد كذراع ابنها تجعل منه حقل تجارب لآخر ما تفتقت به قريحتها الزاخرة من موديلات جديدة فـى عالم الوشم.

- تيك تاك ... تيك تاك ... تيك تاك ...

وعبد المولى لا يفارق أبداً طاحونته. أنه يشـغلها.. ويبقى جنبها، يشبع مسامعه بتكتكتها.. ويخلط عرقه بغبـار دقيقها.. ويستنشق بأنفاسه الرائحة الطيبة التى تعمر الطاحونة

رائحة الحنطة وهى تتحول إلى دقيق سوف بلا شك يـذهب إلى العجن والفرن ويصبح خبزاً يأكله الناس، ويبتلع مع ريقه النكهة الخاصة التى يشعر بها للطاحونة، والتى كثيـراً مـا أحس بها تقف ببلعومه فيسعل ويسعل. ودائما فى يده عصـاً طويلة يضرب بها جنبات الطاحونة حتى لا تظـل الحبـوب عالقة فى حديدها من الداخل، وكثيراً ما تفلسف عبد المـولى بهذه المناسبة قائلا لمن حوله رافعاً عقيرته حتى يعلو بصوته على هدير الطاحونة ليسمع الناس كلماته:

- اليوم كل شيء فى الدنيا ما يمشيش إلا بالعصا.

تيك تاك.

علاش؟ على خاطر الدنيا هادى دينا غدارة.

تيك تاك.. تيك تاك..

دنيا – حاشاكم – بنت حمار.

تيك تاك.. تيك تاك..

ما تمشيش وما يعتدلوش خطاويهـا ومـا تعـرفش الطريق إلا بالعصا.

تيك تاك.. تيك تاك.. تيك تاك..

وينهى عبد المولى كلامه دائما ببصقة كبيـرة علـى الدنيا وهتاف يصاحبه سعال بتحيا العصا.

وعبد المولى لا يهدأ.. طيلة ما رحى الطاحونة تدور وهو يتحرك ويلف ويدور.. كأنه مشدود بخيوط خفيفة وغير مرئية إلى رحاها التى تدور.. وتدور ... وتغرقه معها فـى الدوران.

فهو يذهب ليزن ما يأتى من حبوب ويضع خيشة أو سلة فارغة فى الفتحة التى تشبه الميزان والتى يتسرب مـن خلالها الطحين القادم من بين فكى الرحـى، ويـدخل إلـى الحجرة الداخلية التى بها أجهزة الآلـة يتلمسـها ويطمـئن عليها.. ويأمر ابنه سعيد (وهو ابنه البكر، وعمره ١٩ عاماً، و يتعاون مع والده فى عمل الطاحونة) يأمره فى أن يصـب فى صندوق الطاحونة هذه الخيشة أو تلك.. وهذه مسـألة لا تخضع للسابقين بإحضار حبوبهم.. ولكنها تخضع لقانون يبدأ بسؤال..

من هو صاحب هذه الخيشة؟ فالأولوية محجوزة دائماً للضابط والمتصرف والشيخ، ثم الأمام، وبعد ذلك يأتى دور

القرايب والنسايب والجيران، وفى الآخـر فقـط يـأتى دور الآخرين.

وكثيراً ما كان عبد المولى هدفاً لموجات من الحسـد تأتى راكضة إليه من طرف بعض أهل البلدة الذين يتحرقون غيظاً، لأن عبد المولى سبقهم من زمان بهذا المشروع الذى لا بد أنه يدر عليه الكثير من المكاسـب والأربـاح، وهـذه الموجات على عنف تيارها حيناً، أو انحسارها أحياناً أخرى، على مدها وجزرها، لا تضايق أبداً عبد المولى بـل تزيـده زهواً هو زهو كإنسان يحس فى أعماقه بأنه يحقـق نصـراً مهما كان نوع هذا النصر.

واليوم فى الصباح، سمع الناس الطاحونة تدمدم بعدة دقات متتابعة رهيبة.. ثم فجأة تصمت ... ما الذى أخـرس الطاحونة؟ ... لا بد أن شيئاً ما عطل الطاحونة عن مواصلة هديرها وسرد حكايتها اليومية... وانتظر بعضهم ربما تعود الدقات، وبعضهم رأى... اختصاراً للموقف أن يذهب بنفسه ليستكشف جلية ما حدث.

وهكذا فقد هرول الكثيرون إلى مكـان الطاحونـة، وكان كل من يصل هناك يجد أصحاب الدكاكين الذين بجوار

الطاحونة، يحيطون بعبد المولى يلفون له ذراعه الذى كـان ينبجس منه الدم بخرق يمزقونها فى أغلب الأحيـان – مـن قمصانهم، إلا أن الدم كان يتدفق بغزارة كان يحيل الخـرق البيضاء إلى حمراء ويمزقون قطعاً أخرى مـن القمـاش إلا أنها كانت فى لحظة ما تصبح وكأنها مغموسة فى بركة مـن الدماء... وتقدم الكثيرون يسدون فوهة الجرح بأيديهم إلا أن الدم كان يصبغ الأيدى بلونه ويتسرب من خـلال الأصـابع ساقطاً على الأرض وربطوا له ذراعه من أعلى الجرح ولم ينفع.. وكان أحد الماسكين بعبد المولى يصيح فى الـواقفين بأن يذهبوا ويحضروا الممرض الذى لا بد أنه الآن غـارق فى لعب الورق مع سليمان فى قهـوة البلـدة ا لوحيـدة... ومضى آخرون يسألون عبد المـولى عـن كيـف ضـربه الماطور حتى أحدث هذا الجرح الكبير، وكان هو يقول لهـم ووجهه يابس معصور متخشرف.. كليمونة معصورة ملقـاة فى الشمس منذ خمسة أيام.

الفرارة الصغيرة.. هى التى ضربت ذراعـي... وو وفهموا من كلامه أن المروحة السريعة الدوران، التى تشكل جزءاً من أجهزة ومفاتيح الطاحونة التى تحتويهـا الحجـرة

الداخلية الصغيرة. هذه المروحة اشتبكت مع قميصه وكـان يهم بتخليص القميص عندما وجد المروحة تضرب ذراعه.. فأسكت الطاحونة وخرج يكفكف هذا الجرح الذى لا يكف.

وكان الشريان المقطوع يواصل عمليـة النزيـف.. وكل ما حدث عندما حملوه إلى المستوصـف أن الممـرض التخين بذل مساعيه لإيقاف الدم.. إلا أن الدم كان قد توقـف من تلقاء نفسه فقد استنفدت شرايين عبد المولى ما كان فيهـا من دماء حارة.. واحتار الممرض التخين ماذا يعمل، وكل ما استطاع عمله أن بعث ببرقية عاجلة إلى المدينـة يسـتنجد بسيارة الإسعاف فتنقل المصاب إلـى مستشـفيات المدينـة ليحقنوه على الأقل بدماء جديدة.. ولأن المدينة بعيدة.. مرت ساعة.. وساعتان.. وثلاث.. والسيارة لم تأت، ووجه عبـد المولى مع مرور الدقائق يزداد شحوباً وامتقاعاً ثـم غـدت سحنته تماماً كالتراب.. ثم بدأت عينـاه تفقـدان حيويتهمـا وألقهما، وصارتا كعيون من خزف، ولم يعودا ينقلان لعبـد المولى المرئيات كما كان يراها واضحة جلية بل كل شـيء أمامه أصبح لا يراه إلا مهزوزاً مرتجـاً مختلطـاً ببعضـه البعض حتى الأصوات كانت تتداغم فى أذنيه وكأن النـاس

من حوله يتكلمون بلغة غير مفهومة ... تماماً.. تماماً كلغـة طاحونته الغير مفهومة التى شعر بها دائماً كأنها نذير بوقوع شيء فى ضمير الغيب ها هو يقع اليوم اليوم.

وتتقلب الأشياء أمام عينى عبد المولى ثم تأخذ فـى اللف والدوران تماماً كالمروحة السـريعة الـدوران التـى ضربت ذراعه، محدثة دوامة صغيرة.. ثم شعر كـأن هـذه الدوامة تبتلع قدميه وتأخذ فى الزحف على هيكلة وأطرافـه ... وتصل حتى أنفاسه ... وقال أشهد.. ولم يكملها فقد اهتز للحظة ثم مال رأسه على كتفه، وهمد فجـأة لافظـاً آخـر أنفاسه.

وكان وجه عبدة المولى فى لون التـراب... ويـداه المسبلتان بجانبه فى لون التراب وكل ما فى الجسد المسجى الذى سيوارى بعد حين فى التراب، كان فى لون التراب.. لا بد أنه حنين التراب.. إلى التراب.

وأصيب الناس بذهول... لم يكن أحد ليصدق أن عبد المولى ممكن أن يموت بهذه السرعة وبهذه البساطة وبهـذا الجرح التافه فى الساعد الأيمن. وعندما أفاقوا من ذهـولهم انفجروا جميعاً يبكون.

وفى لوعة وحرقة صرخ سعيد وانكفأ علـى جسـد والده الذى باغته الموت فمزق أنفاسه بهذه السرعة العجيبة، التى دونها سرعة دقات الطاحونة عندما تنطلق فى الصـباح الباكر تمزق هدوء البلدة. وتجمع النساء فى بيت عبد المولى يلطمن وجوههن ويشـددن بشـعورهن ويأخـذن بعضـهن بالأحضان (وظاهرة الأحضان تدل على تقصير شـنيع فـى النفس البشرية التى لا تجد سوى الأحضان تعبر بهـا عـن حزنها فى يوم الحزن وتعبر عن فرحتها فى لحظات الغبطة والأفراح.

وصلى الناس على جثمان عبد المولى وحفـروا لـه قبراً وأهالوا عليه التراب. ثم قرأ الشـيخ يـونس بصـوته الممطوط الأخنف سورة يس والقرآن الحكيم ... على قبـر الفقيد، ورجعوا بعد أن رشوا فوق تربة القبر والقبور التـى جنبه قليلاً من الماء..

وكان أكثر ما يهم الناس فى البلدة الآن هـو الأمـر الذى ستؤول إليه الطاحونة، وذهب الكثيرون إلى أن سـعيد سوف يبيع الطاحونة إلى أحد سراة البلدة.

وبعضهم يقول أن سعيد سوف يبقيها ويرجعها إلى طرابلس فهو لن يستطيع بيعها هنا، لأنه لا يمكن لأى أحد فى البلدة أن يشترى الطاحونة التى رآها تقتل صاحبها.

وآخرون يذهبون إلى أنه سوف يبقيها على ما هو عليه فقط. سوف يقفل عليها الدكان، لتبقى محبوسة تماماً كما اعتدنا أن نحبس ذكرياتنا الأليمة. وسيبحث له عن مهنة عامل صوندا بإحدى الشركات.

كانوا مختلفين فيما سيؤول إليه مصير الطاحونة.. إلا أن الشيء الوحيد الذى كانوا متفقين عليه هو أن سعيد لن يعود لمزاولة العمل بالطاحونة التى ارتكبت جريمة قتل والده مع سبق الإصرار والترصد.

ورغم تأثر جميع من فى البلدة بموته عبد المولى، إلا أن تأثرهم وأشغالهم الأكبر كان من الطاحونة التى ربما لا تعود إلى الدقات مرة أخري.

وكانت النساء هن الأكثر تأثراً لأمر الطاحونة.. ذلك لأن الود الذى تحمله نساء البلدة للطاحونة ود قديم.. يبتدئ منذ اليوم الأول الذى اشترى فيه عبد المولى الطاحونة.. حيث كن فى ذلك الوقت لا يعرفن سوى الرحى الحجرية

الصغيرة التى يستعملنها فى البيت.. حيث كانـت الواحـدة منهن تقوم فى منتصف الليل إلى الرحى، فتضع تحتها رقعة الجلد كى يتساقط عليها الدقيق ساعة الطحن وتضع بجانبهـا طبق ملئ بالحنطة أو الشعير.. وتجلس وقـد مـدت سـاقها وانحنت على الرحى تديرها بيد وباليد الأخرى تلتقط الحفنات الصغيرة من الحبوب وترمى بها فى قلب الرحى، وعنـدما تتعب يدها التى تدير الرحى تبدلها باليد الأخرى، وتظل تغنى لتبدد وحشة الليل، وتحوش عن عينيها النعاس.. تغنى عـن أسطورة حب قديم، أو أغنية تمجد المعركة التى انتصـرت فيها القرية على أعدائها فى زمان بعيد. أو بأغنية عصـرية تتهجم على صنف الرجال.. كن الرجال وما أن يأتى الصباح حتى تكون قد أكملت طحن ذينك الصاعين أو الثلاثـة مـن الحبوب.

وعندما أصبحت فى البلدة طاحونة كانت من الصعب أن يصدقن بأن هناك " ماكينة" تطحن أشوال شعير فى ساعة واحدة من الزمن وكانت عبارة.

يا ربى؟ ... شن هالسحر يا مولاى؟ ".

مثل هذه العبارة كانت كل واحدة منهن تظل ترددها كلما بعثت بشيء من الحبوب ورجع إليها مطحوناً فتأخذ تقلبه.. وتجرب مدى نعومته بين أصابعها.. وعندما تجد أنه مطحون كأحسن ما يكون الطحين لا تجد سوى هذه الكلمة معبرة بها عن اندهاشها وربما عن غبطتها أيضاً.

وبقدر استغرابهن منها بقدر إعجابهن فى نظر كل نساء القرية المعجزة التى استطاعت أن تنقذهن من السهر والتعب والشقاء. وتحويش النعاس بأغنية ركيكة، وعاش هذا الود يحملنه فى قلوبهن للطاحونة حتى بعد أن أصبحت عادية ومألوفة وطبيعية.

واليوم كان طبيعياً والطاحونة تتعرض لهذه الأزمة التى قد لا تعود بعدها للدقات أن يكون تأثر النساء فى البلدة أكثر من الرجال.

وفى حين قضى أطفال البلدة اليوم الأول بعد وفاة عبد المولى يسطرون على الجدران البيضاء المرثية الطويلة التى قالها معتوق ابن سعد ا شاعر البلدة الأوحد فى المرحوم عبد المولى معدداً أفضاله ومناقبه وخدماته التى

قدمها للبلادة عندما أقام بها طاحونة باهت بهـا بلـدتهم كـل البلدان.

فإن الرجال الكبار قضوا هذا اليوم فى التكهن بموقف سعيد حيال الطاحونة.

وربما كان بإمكانهم أن يسألوه ماذا سيعمل بالطاحونة بعد موت والده.. إلا أنهم آثروا أن يحترموا حالتـه النفسـية وأن يترقبوا الأحداث حسب تسلسلها المنطقى دون محاولـة إحراج سعيد بالسؤال.. وفى صباح اليوم التالى.. والناس ما زال بعضهم لم يشرب " الطاسة" الأولى من شاى الصـباح.. فوجئوا بدقات الطاحونة بمزق هدوء البلدة، متدفقة فى حـزم وشدة وقوة.. كأنها تقول لهم بلغتها المجهولة المتدافعة صباح الخير.

وكان أول ما فكر فيه النـاس هـو أن سـعيد بـاع طاحونته لأحدهم ... ولكن من هـذا - الأحـدهم - الـذى ارتضى لنفسه أن يشترى طاحونة قاتلة؟؟

وكان هذا السؤال هو الذى بعضهم ينزل كوب الشاى من فمه قبل أن يكمل الرشفات السـعيدة.. ويهـرول إلـى الطاحونة.. ومنهم من خرج والطاسة فى يده وكسره الخبز لا

تزال بين أصابعه ويسأل بفمه المحشو بالخبز – أشكون هو.. أشكون هو اللى شرى الطاحونة؟

وكان آخر ما كان يصدقه الناس فى البلدة، هـو أن يجدوا سعيداً يتولى العمل فى الطاحونة مكان والده ... وهذا ما حدث.. فكل من ذهب إلى الطاحونة وجـد سـعيداً يلـف الحزام – بثناياه الكثيرة على وسطه ... وماسكاً بالعصى فى يده وقد أخذ مكان – المرحوم- فى الطاحونة.

كانوا يقفون كالتماثيل يفركون أعينهم وينظرون إلى بعضهم فى اندهاش وعد تصديق.. بل منهم من لم يقوى على النظر فولى يجرى وهو يصيح فى وجـه كـل مـن يقابله.

سعيد ... سعيد ... سعيد خـد مكـان والـده فـى الطاحونة حتى الأطفال أدركوا سر الحكاية فهرولـوا إلـى أمهاتهم يبلغونهن عن الخبر.

وكانت الطاحونة تنفث دخانها إلى أعلى وكأنها تريد أن يلحق بروح عبد المولى فى السماء.. وكان صوتها يعلـو على كل همهمة استغراب وكل آهة تعجب أو دهشـة، تيـك تاك ... تيك تاك... تيك تاك.. كان إيقاعها يدمدم... وقد بدا

تماماً فى هذه المرة كأنه وقع أقـدام قطعـان مـن الخيـول تضرب – فى سرعة وقوة وإصرار – عبـر طـرق خفيـة مجهولة.

الطحالب

الفرحة.. الفرحة ...تغمر وجوه الأطفـال الصـغار الذين يتسلقون الأعمدة المتناثرة وسط الميدان ويثبون علـى أصابع أقدامهم فوق حديد الدرجات المسندة على الجـدران. ويزدحمون بأعمارهم الصغيرة وقمصـانهم الزاهيـة، هـذه البقعة من الميدان التى حولى.

الفرحة... الفرحة... تستبيح قلوب الشـباب الـذين تتدافع أقـدامهم وأنفاسـهم اللاهثـة علـى أرض الميـدان ويتزاحمون أفواجاً فوق البنايات التى حوله، ويصعدون إلـى قاعدة التمثال الذى ينتصب كان الماضى العظيم فى وسـطه، يعانقون ابن ليبيا الأكبر سبتموس سفروس، ويبتدعون لهـم أماكن فى قمم أشجار النخيل يشرفون منها على التاريخ وهو يبتسم فى قلب هذا الميدان!!

الفرحة... الفرحة... تنطلق مفعمة بالشوق والتـأثر من أيدى الرجال التى تصفق للحرية، وأفواههم التى تهتـف هتافات النصر، فى عيد النصر، حتى الصبايا فـى البيـوت يستشعرون بالفرحة تهز أعطافهن الصغيرة، فيعانقن مبـاهج الشعب من خلف شيش النوافذ ومن خلال البلكونات.

وهذه المرأة العجوز التى تصفق. وتهتـف. وتشـق بعكازها الزحام، كان واضحاً أن الشعور يملؤها بأنهـا قـد ساهمت فى صنع هذه اللحظات، لذلك فهى مصرة علـى أن يكون لها مكان فى مقدمة الصفوف. إننى أفهمه تماماً شعور هذه المرأة العجوز، إذ أنه نفـس الشـعور الـذى ينـتفض بجزئياته الصغيرة داخل أعماقى. فالستون عاماً يـا أبنـائى أشعر بها الآن نشوانة تهتز تحت أقدامى.

وعلى أجنحة من هذه الفرحة التـى تغمـركم أيهـا الأبناء المعيدون. وهذه الهتافات التى تهتف النصر فى عيده الكبير تنطلق من أفواهكم. وهذه البسمات التى تملأ وجوهكم من حولى.

شعرت بنفسى أطوى المسافات بأميالهـا وأبعادهـا وأحلق إلى بقعة بعيدة من التاريخ. حيث تأتى لى ذات أمسية قائظة أن أكون من ضمن المساهمين فى صنع هذه اللحظات.

أرجوكم ... لا تخرجوننى بالسؤال عن كـم كـان عمرى وقتها. فأنا إنسان من مجموعـات إنسـانية ولـدتها الأحداث وأبناء الأحداث لا يقيسون أعمارهم بالسنين العادية التى نعهدها. إذ أنهم لو فعلوا ذلك لاضطربت الأرقام ولكانت

الحسبة زاخرة بالأغلاط... نعم فالفرق شاسع بـين أعـوام الأحداث والسنين التى اعتدنا أن نحسب بها. صدقونى فهكذا – يا أبنائى علمتنى الحياة.

كما أنى أنا نفسى لا أفهم على وجه التحديد كم كـان عمرى وقتها، بيد أنى أستطيع أن أقـول- أن هـذا العمـر بالتأكيد لم يتجاوز الخامسة عشر عاماً.

لا تعجبوا من هذا الإنسان الذى لا يعـرف تـاريخ ميلاده، فعلى أيامنا يا أبنائى لم تكن هناك شهادة ميلاد يذيلها موظف متجهم الوجه بإمضائه المكسر، ولم تكن بالتالى نعمل حسابا للأعمار.

الريف، كان مهد أيامى التى صبغها بلونه، فاضحت أياما خضراء.

حياتى الصغيرة، بمساحتها الضيقة، كنـت أجوبهـا بعواطفى الطفولية البريئة وأقدامى الصغيرة الحافية... وأنـا سعيد منتهى السعادة.

مع بواكير الصباح أذهب بشـياهنا إلـى المراعـى القريبة، ومع ظلال المساء الباهتة الشـاحبة، أعـو محمـلاً بالشوق إلى وجه أمى ووالدى (ومخلتي) المطـرزة بنقـوش

جميلة زاهية تتذبذب دائما فوق ظهرى مثقلة بارنب أو قنفـد أو حتى ضب يحلى لنا بلحمة العشاء. فلم أكن أعمـل شـيئاً اخر سوى أن أرعى شياهنا التى لا يتجاوز عددها الثلاثـون شاة، وأضرب (المقرونة)، وأعدو خلف الأرانب الصـغيرة، وأكوم الأحجار أمام كل عش أعثر عليه من أعشاش الطيور حتى يمكننى دائما الاهتداء إليه. وأحيانا أترك الشاة ترعـى وأظل اختار كثبان الرمال التى يمكننى أن أتـدحرج فـوق رمالها بسهولة، وفى الليل كنت أذهب (بالمنداف) حتى إذا ما عثرت على بقعة بها أثر أقدام لارنب أو ثعلب عنيد، حفرت له حفرة صغيرة (نصبته) بها وواريته بقليل مـن التـراب. ورجعت. على هذه الوتيرة كنت أعيش أيامى.

وبدأ الموقف غامضاً علـى إدراكـى الصـغير، إذ صرت المح تغيراً ظاهراً فى الأجواء التى تحيط بى، موجه غير عادية من الاضطرابات تجتاح النجع الذى يضمنا. أمى باستمرار تبكى لأن أختها ماتت بالقرية. تبكى وهـى أمـام الموقد المحفور فى الأرض يغمر وجهها الدخان وقد انهمكت تطهى لنا (البركوكش) أو (البازين)، وتبكـى وهـى تحلـب الشياه التى أظل أنا ماسكا بها من شعور أعناقهـا. وأسـمع

نشيجها الذى أشعر به يفتت كبدى فى وهدة الليل عندما أنام، فلا أملك ألا أن أبكى من أجل بكائها.

النسوة يتجمعن صباحا فى بيتنا، يبكين مع أمى بكاء حزينا مرا، أشعر بوقعة القاسى فى قلبى.

سعدون الفحام العجوز، يضرب أطفاله الصـغار كـل يـوم ويشتم العالم ويصيح بصوته المشروخ لأن مطيـرة الـزرع التى له بوادى سوف الجن، أحرقوها، امـرأة غريبـة ذات سحنة ترابية باهتة... الدموع تسح فى حرقة مـن عينيهـا، نزلت ومعها طفلها الصغير على بيت جارنا الحاج المبروك، ويقولون أن زوجها قتلوه. الوجوه غدت جميعها مكتئبة بائسة حزينة وقد ازدادت مع الأيام شحوبا وصفرة تجهما.

الأحاديث التى تدور بين القوم فى خفوت كانت تبدو كالسحب الشتوية التى تنذر بالخطر.

الرجال الكبار يتجمعون على وجوههم تتبعثر سحب عامقة ينكثون الأرض بأعواد صـغيرة، ويرسـمون فـوق التراب خطوطاً ساذجة مكسرة ... وينفضون!! البكاء لم يعد غريبا فى أى لحظة من الصباح أو المساء أو منتصف الليل. يصدر عن أية جهة لأن إنساناً قد مات الأفق البعيد أضـحى

هو الأخر عامرا بالدخان الأسود، الأرض التى كان يضـوع شداها الطبيب العطر، اكتسبت رائحة أخرى شـعرت بهـا غريبة على أنفى. المراعى الزاهية الخضراء التى كانت ملء المدى تتماوج بالأعشاب والحشائش النظرة أخذت تفقد لونها الأخضر شيئاً فشيئاً فراخ العصافير الصغيرة التى تنام فـى سكينة داخل الأعشاش، أضحت تفقد سكينتها فدائما أراهـا لا تكف لحظة عن فتح مناقيرها الصغيرة. شبح غامض معقـد مطموس المعالم يلفه الضباب. هكذا كان الأمر أمام ناظرى. علامات استفهام ضخمة تحنى قاماتها فى حيـرة، تتـزاحم داخل رأسى حتى لكأن ينفجر، علامات أشعر بها أضخم من هذا الرأس الكروى الصغير الـذى تعلـوه طاقيـة متآكلـة الحواشى. والذى ينتصب فى ذعر فوق أكتافى الهزيلة.

وأخيراً، تاتى لى أن أعى كل ما حولى دفقة واحدة.

كان والدى قد غاب لمدة ثلاثة أيام. ووالدى أصـبح يغيب كثيراً فى الآونة الأخيرة، وقد كنت حائراً فى سر غيابه المتكرر الغريب حتى أنه فى إحدى المرات رجع من غيبتـه وقد تلطخت ملابسه بالدماء من أثر جرح كان ينز من ذراعه وعندما سألته، أخذنى بذراعه السليم فى حضنه وقبلنى ولـم

يقل شيئاً. وحائر أيضاً من أمى التى أراها تبدو خائفة وجلة، كلما رأت والدى يأخذ بندقيته ويرتشفه الأفق أما فـى هـذه المرة فقد عرفت بأنه ذهب إلى القرية مع الشيخ عبد العـالى شيخ قبيلتنا والحاج مبروك جارنا، وأناس آخرين لا أعرفهم، ذهبوا جميعاً ليتحدثوا فى أمر من الأمور مع أناس أغـراب جاءوا إلى قريتنا سمعت أمى تقول عنهم، أنهم يرطنون بكلام غير كلامنا وأنهم كفار لا يصومون ولا يعرفون ا .

وكان ذلك ذات أمسية من أمسيات أواخر الربيـع... كانت الشمس تصلى بلهيب أشعتها الكون والرياح القادمة من الجنوب تهب محملة بالعرق والضيق والتـذمر، وتعصـف بخيمتنا الصغيرة السوداء التى نقطنها. وفى المساء كان يهوم غراب أسود كان النذير.. عند ما رأيت جملنا الذى مسـافر عليه والدى إلى القرية، والـذى كـان يحولـه إن يسـميه " الأزرق" للون جلده الضارب إلى الزرقـة، يتـرنح بعدائلـه الثقيلة التى تعلوه.. يقوده خالى سليمان ناحية بيتنا وتعجبـت لأن والدى لم يحضر معه، فقد أخبرنا قبل أن يـذهب بأنـه سيرجع مساء هذا اليوم. لذلك لم أذهب للعـرى بعيـد عـن الخيمة حتى أكون فى استقباله عندما يعود، وفـى اسـتقبال

القميص الجديد الذى وعدنى بأنه سوف يحضره لـى معـه والذى أوصيته بأنه يكون من القمـاش المخطـط بـالأبيض والأخضر.

لكن ها هو الجمل والعدائل... ووالدى لم يحضر ...

أتى بدلا منه خالى سليمان.

- السلام ...

منقبضة منكمشة حزينة، ارتمت فى وهن واعياء مـن بـين شفتى خالى.

ومد لى يده فى تثاقل وبرود، ورأسه منكس إلى أسفل وهـو يشد بزمام الجمل كى يبرك – إخخخخ.... إخخخخ.

وبرك الجمل وهو يرغى والزبد يتطاير من فمـه المشـقوق لكأنما شعر بمصيبة نزلت عليه.

اقتحمت بنظراتى العدائل المحملة فوق ظهر الجمل.

وفوجئت بالحدث المروع، ففى قلب العـدائل الكبيـرة كـان والدى والرفاق الذين معه، أتوا يلتصقون ببعضـهم بعـض ويرتمى كل منهم فى أحضان الأخر، لكأنما التقوا بعد غياب طويل. لقد أتى والدى ومعه عنقه المكسور ووجهـه الأزرق المفحم، وابتسامة الموت التى تتأرجح فى وهن على شفتيه.

وأصبت بذهول... ولم أفعل شيئاً... سوى صـرخة ملتاعة محروقة انطلقت من فمى كالقذيفة.

ثم لا شيء سوى الأرض التى تميد تحت أقدامي... والأشياء التى تختلط فى رأسى والدى ورفاقه والدم والجمـل والسماء والأرض ... الكل تحول عجينة واحـدة... و ... ارتميت على التراب لا أعلى شيئاً.

وعندما أفقت عرفت كل شئ فى كلمة واحدة كانـت هذه الكلمة هى "الطليان".

ومن خلال رائحة الموت التى تغبـق فـى الجـو، والنحيب المتصل الحزين الذى يتصاعد فى حلقـات رتيبـة، كانت كلمات خالى الهادرة التى يحدث بها أمى وأهل النجع، تتدفق – بصحبة هذه السـمفونية الحزينـة – إلـى خـزان أعماقى. كان خالى يتحدث عن "العمايل" التى يرتكبها هؤلاء الإيطاليون، يتحدث عن والدى ورفاقه، ولماذا قتلوهم، وكيف عرضوا عليهم أن يسكنوهم القصور المنيفـة ويزوجـونهم الإيطاليات المستوردات من شوارع روما ويعقـدون فـوق رءوسهم الوية المناصب العالية بشرط واحد هـوان يسـلموا الأرض ويكفوا عن المقاومة لكن أحرار هذه الأرض ركلـوا

بأقدامهم نعم الطليان المزعومة. وصرخوا فى وجوههم بـأن أخرجوا فالأرض السمراء الصلدة سـتبقى تحـت أقـدامنا. والوطن سيظل دائما لنا. وما كان من جنـود إيطاليـا إلا أن دفعوا برقابهم لتقصفها حبال المشانق.

رائحة الموت لا تزال تعبق فى الجـو... صـارخة مولولة كأنها تستنجد بنا. النحيب الحزين يعزف سـيمفونيته ذات اللحن الذى يتماوج فوق رؤوسنا أسوداً حالـك السـواد وصوت خالى الحزين العميق المشروخ... لا يزال يتدفق فى خزان أعماقى.

كان خالى يتحدث عن هؤلاء الطليان الذين يريـدون أن يسحبوا الأرض من تحت أقدامنا وفاتهم أن أقـدامنا منـذ الأبد ضاربة فى أعماق هذه الأرض كان يحدثنا عن تفتيشهم للقرية... كانوا يتذرعون بالتفتيش عن السلاح كـى ينهبـوا مصاغات النساء ويرمون بغداء العـائلات فـى سـياراتهم المغبرة الصفراء، ورصاصاتهم الطائشة تملأ الجو... تبقـر بطن امرأة، وتطير رأس شيخ عجوز، وتترك طفلاً صـغيرا كان يلعب، يسبح فى بركة حمراء من دمه وتنتهـى كلمـات خالي...

وينمو لدى شعور بأن للحياة مفهوما أخر كبيـراً ... يدعونى لكى أقتحم رحابه، وغليان فى أعماقى، بكـاء أمـى المبحوح الحزين، مطيرة الزرع المحروقة، الدموع فى عينى المرأة الغريبة، النظرة المنطفئة فى عينى والـدى وعيـون رفاقه، وأخيراً القرية التى تحدث عنها خالى. كل هذه شعرت بها تغلى وتتطاحن داخل أعماقى. وتتحول إلى حقـد هائـل مقدس أحسست به كنبات الطحالب ينمو بداخلى، وتمتد هـذه الطحالب وتزداد غزارة كلما ازداد مسيل الدموع فى العيون التى حولى، لكأنما هى تستمد حياتهـا مـن مـاء الـدموع. وتتشابك أغصان هذه الطحالب، وأشعر بها تملآ أركان قلبى وخلاياه، أشعر بثلجها ووهجها وبأوراقها وقد أخذت تعصف بها الرياح الهوجاء. فأحس بالوهج، واللفح ومن ثـم يتولـد شعورى المحرق بالعطش.

وتنتابنى رغبة ملحاحة فـى أن أطفـئ غلـة هـذا العطش. وكان بديهياً أن آخذ طريقى إلى بحر طامى من الدم سوف أقتل المئات من قاتلى والدى وسارقى البسـمات مـن أفواه الناس الذين حولى، هكذا كنت أقول فى نفسى، فهذا هو

الطريق لأن أطفئ عطشى، وأروى غلة الحقد الكبير الـذى يئز كأنه رحى سريعة الدوران داخل أعماقى.

عمرى الذى لم يتجاوز الخمسة عشـر عامـاً كمـا ذكرت لكم، لم أشعر به فى تلك اللحظات. نعم. أنه الإنسـان عندما يحلق بأجنحة من وطنيته وعواطفـه الجياشـة فـوق تحاريش الزمان...

- أيهون عليك يا حسين يا ولدى تمشى تطفى غليلك منهم... وتسيبنى بروحى نأكل فى بعضي؟ لا..

لا يا وليدي... أنى ما نقدر نقعد ... حتى أنى لازم نمشى.

وكانت الكلمات تتدفق من بين شفتى أمى فى حرارة وتـوهج وعتاب، وعيناها كانت تومضان بوميض مشع غريب. حتى تجاعيد وجهها وتغضناته، انسدلت فـى خطـوط مسـتقيمة غريبة.. وعرفت... عرفت أنها الطحالب تضرب عروقهـا فى أعماق أمى. أنا لا أصدق أن هذه الأم هى التـى كانـت بالأمس تبدو جزعة على والدى وهو يرتشفه الأفق ذاهباً إلى الجهاد...

- أنت تريدنى نقعد... لكن لا أنى ما نقدر أنـى كبـدى دم عليهم.

كانت أمى تريد أن تثأر.

لقد وصل إلى علمها أخيراً أننى صـممت وبعـض الرفاق على أن ننتقم للدماء التى سفكت غدراً، دماء والـدى ودماء الألوف من أمثال والدى، ورفضت لامـى أن تـذهب معى إلى المعركة، قلت لها أنها امرأة عجوز من واجبها أن تبقى فى بيتها وأن تترك الجهاد للرجال فهم الأولى بضـرب النار. وأخذ الثأر،. لكنها لم تقتنع، قالت لى أنها تريد أن ترى قاتلى والدى يجندلون فى دمهم، كما أن بإمكانهم أن تسـاعد بتضميد الجراح وتعمير البنادق للمجاهدين، وتحضير الطعام لهم، وكلام كثير أخر أنهيته من طرفي... بلا.

لكنها ها هى تلح مرة أخرى.

أخرجت البندقية من " غرارة " الشعير التـى كانـت مخبأة بها. ونفضتها من التراث والحبيبات العالقة بها. وبقيت صامتاً. ثم رأيت أمى تنحنى فى هدوء غريب على (المخلي) المزينة بالنقوش.

تودع فيها رداءها القديم وتضع بها صرة كبيرة مـن "السويقة" وارغفة الخبز... وقلت – أشن تديري؟

لم ترد، نظرت نحوى فقط، ثم استقامت بقامتها هيـا إخاص يا حسين... هما رفاقتك وين؟

استمريت فى مسح البندقية بخرقة بالية، ولم أتكلم فى حين استطردت هى إننى أهو أخلاص ... وأتيه.

قالت كلماتها فى بساطة وكأن كل شـئ تـم بـانى سآخذها معى، يا لهذه الأم كم هى عنيدة، هل أكـرر علـى مسامعها مرة ثانية بأنه لا يمكننى أن أجعلها تذهب معى، لن تذهبى، أتفهمين، وفتحت شفتى – أسمعى أنت مش ممكن...

وقاطعتنى وهى ترمـى بنظراتهـا بعيـدا خـارج الخيمة... هذوم أرفاقتك... أوينهم جايين.

لكن هى مالها ومال رفاقى. أن الرجـال ميـادينهم وللنساء ميادينهن الأخرى، هل يصر الرجال على أن يقـوم بالرضاعة والولادة. لماذا تصر هذه المـرأة علـى اقتحـام ميادين الجهاد، وهى للرجال – حسين.

كان النداء فى هذه المرة قادما من الخـارج، كـانوا ثلاثتهم، عامر وعاشور والهادى، الثلاثة الذين اتفقت معهـم

على الانتقام، وعلقت البندقية فوق كتفى وأخـذت (مطـرة) الماء بيدى الشمال وهممت بالخروج – مـش إخـلاص يـا حسين.. مش حتى أنى معاكم.

لقد انهارت مقاومتى أمام النظرة التى تطل من عينى أمى ومع ذلك أبديت شيئاً من الصلابة علنى أكسب الموقف لكن الخيمة والشياه... لمن نتركهم؟

الشياه خداهم عمك سعدون مع شياهه، الخمية قلـت لعمتـك زينب تطويها.

أهدابها الباهتة لا تزال معلقة بشفتي...

التجاعيد التى انسدلت فى خطـوط مسـتقيمة فـوق وجهها تجعلنى، أوافق. ومع ذلك لم أتكلم تكلمت هى، مـش خلاص يا حسين، مش خلاص.

وبدون أن أشعر وجدتها تنقلت من شفتي...

خلاص ... هيا معانا...

وغمرتها فرحة أشـبه بفرحـة الأطفـال، وأخـذت (المخلي) فوق ظهرها وهى تمسك بيدى أنا وامى، وسرنا.

وشعرت بأن نبات الطحالب الذى ينمو فـى قلوبنـا، يمتد بأغصانه فى تلك اللحظة ليتشابك.

فى طحلبة كبيرة عملاقـة، تتهـادى عبـر الأرض الواسعة لتحقيق المصير.

- كركب... كركب... كركب.

وكانت تلك هى الأحجار الصغيرة تتدحرج. بكركبتها اللذيذة تحت أقدامنا وكأنها تقول لنا على بركة ا .

ومضى موكبنا الصـغير... ينـداح عبـر الأرض كالرافد الذى يصب ويتجمع مع روافد أخرى كثيرة، ليخلـق الموكب الزاحف الكبير، الـذى يجتـاح السـدود. ويصـنع التاريخ. ويطوح بعيداً بأعداء الإنسان.

العائد من المهجر

عرفت الهادى أول ما جاء من تونس ليستقر في طرابلس، فتى في منتصف العشرينيات هزيل البنية يانع النحافة نقي البشرة برزت ملامح وجهه المستطيل بسبب الهزال والنحافة فبدا جبينه واسعا عريضا تطل من تحته العينان كأنهما تطلان من تحت جرف صخري. أما أنفه الدقيق النحيف فقد كان يمنح وجهه وساقه ورهافة رغم بروز العظام في منطقة الوجنتين يتحدث بلهجة تونسية يحاول أن يدخل فيها بعض الكلمات الدارجة الليبية إدخالا تعسفيا فتبدو محاولات عقيمة تثير الضحك والتندر.

انضم إلى مجلسنا في قهوة عبد ا الشوشان الذي كان مجلسا مفتوحا لأصحاب الاهتمامات الثقافية حيث يجلس صامتا لا يتدخل في الحديث إلا إذا بادره أحد بالسؤال حتى ظنناه في المرات الأولى التي يلتحق فيها بمجلسنا عينا من عيون الحكومة ينقل للأجهزة الأمنية ما يدور بيننا من حديث، ولكنه عندما استرسل قليلا في الكلام بلهجته التونسية وعرفنا أنه حديث عهد بمدينة طرابلس التي لم يصلها إلا منذ

أسابيع قليلة قادما من العاصمة التونسية بغرض العمل والإقامة اطمأنت إليه قلوبنا وزال التحفظ الذي قابلناه به.

عرفنا منه أن ظروفا أرغمته على الخروج من تونس دون أن نعرف شيئا عن طبيعة هذه الظروف، مما جعل أذهاننا تنصرف إلى القضايا العائلية، إلا أن أحد رواد الجلسة ربط بين خروجه المفاجئ من بلاده وبين عمليات المطاردة الدائرة في تونس لاتباع صالح بن يوسف الذي أعلن معارضته لبورقيبه، وفر هاربا من البلاد، خاصة وأن الهادي أظهر اهتماما كبيرا بالسياسة وحماسا للنظام الثوري في مصر وقائده جمال عبد الناصر، رغم أن الناس من أصحاب الميول الناصرية والثورية في ليبيا يتحفظون كثيرا في إبداء مشاعرهم خوفا من إثارة الشبهة لدى نظام لا يخفى كراهيته لأصحاب هذه التوجهات. ولكن من أين لفتى هارب من بلاده بمعرفة أهواء الحكام في بلد النزوح وهو مازال في أسابيعه الأولى.

عرفنا منه أيضا إن الذي دعاه للمجيء إلى طرابلس هو أنه كان يسمع من والده الذي مات منذ سنوات قليلة حديثا عن أصله الطرابلسي دون أن يعرف أي تفاصيل عن أهله أو

يجد في يده خيطا يقوده إليهم، ولكنه جاء مدفوعا بإحسـاس جارف لأن يعود إلى أرض الجدود ويلبى نداء الجذور. وكان بعض أعضاء الجلسة يشككون في حقيقة هذا النسب، وإن هو إلا محاولة من الفتى لأن يحقق لنفسه نوعـا مـن الانتمـاء لمجتمع جاء إليه غريبا وبقي فيه غريبا بعد أن نبذه مجتمعه الحقيقي، وكان كبار أعضاء الجلسة وبيـنهم الكاتـب علـي مصطفي المسراتي يلومونا لكل هذا القول، فالمجتمع العربي كله مجتمع واحد، وما هذه الحدود إلا أمر عـارض طـارئ لأن أجيالا قبلنا لم تكن تعرف حدودا بين ليبيا وتـونس ولا بين تونس والجزائر ولا بين الجزائر والمغرب، فكـل بـلاد العرب بلاد واحدة، وأبدى هؤلاء الكبار ترحيبـا بالرجـل، وتصديقا لروايته ورغبته في حل مشاكله كإنسان عائد إلـى وطنه، إلى حد أن المؤرخ الشيخ الحاج محمد الأسطى تطوع بأن يبحث له عن عمل عندما وجده ضائعا حائرا لا يـدري كيف يلتقط رزقه في بلد مازال في أواخر الخمسينات يعـاني العوز والطاقة ويتطلع إلى أفاق مستقبل أفضل بسبب ما أعلن عن وجود بترول في صحرائه. وجاء الحاج الأسـطى ذات مرة فرحا لأن المحفوظات بالسرايا الحمـراء تبحـث عـن

مترجم لبعض الوثائق المكتوبة باللغة الفرنسية، ظنا منه أن الفتى يجيد اللغة الفرنسية كغيره من أبناء تونس، ولكن الهادي اعتذر لأن تعليمه كان تعليما دينيا صرفا وأنه قطع هذا التعليم لظروف عائلته الفقيرة، واشتغل في مهن كثيرة حتى انتهي به الأمر محصلا للإيجارات في شركة عقارية بمدينة تونس، يملكها شيخ من أصحاب والده، وحدث أن مات الشيخ فأقفل الورثة الشركة، ليجد نفسه عاطلا، فجاء يبحث لنفسه عن فرصة للعمل في بلاد أجداده.

كنت أراه في الشارع يمشي وحيدا، ويأتي إلى مجلسنا في قهوة عبد ا وحيدا، ثم ينهض وحيدا، يقيم، كما قال ذات مرة، مع بعض العمال التونسيين في مواقع أعمالهم، أما كيف يتدبر أمر معيشته فهذا ما لم أعرفه إلا بالصدفة، عندما ذهبت ذات ليلة متأخرا لأتناول عشاء سريعا في محل الأطعمة الخفيفة الذي يسمى باسم صاحبه "الشارف" في شارع حيزران، فوجدت الشارف قادما بجسده العملاق ليغلق الباب وقد ودع آخر زبائنه، وجاء بعامل التنظيفات الذي يأتي آخر الليل لغسل البلاط وإفراغ بقايا الطعام في صناديق القمامة، يباشر مهمته، ولم يكن هذا العامل غير الهادي

التونسي. رأيته من خلف زجـاج البـاب المقفـول، يشـمر البنطلون عن ساقيه ويدلق الماء فوق أرض المطعم وينحنـي والخيشة في يده يجفف الماء ثم يعثر الخيشـة فـي سـطل بجواره، رأيته ولم يرني، فانصرفت مسرعا قبـل أن تحـين منه التفاتة نحو الباب ويلمحني، ولم أذكر له شيئا عن هـذا الموقف، عندما تكررت لقاءاتي به بعد ذلك في القهوة، كل ما في الأمر أنني ازددت عطفا وإشفاقا عليه ورغبـت فـي أن أخفف عنه معاناته وأنا أراه وحيدا لـم يفلـح فـي مجتمـع العصابات القبلية أن يصنع له أصدقاء، ولذلك فإننى عنـدما رأيته فى يوم عيد يجلس وحيدا فى الحديقة الدولية، وأنا أعبر الحديقة فى سيارة أحد الأصدقاء، قاصدين النادي البحـري، حرصت أن أوقف السيارة وأهبط لأبارك له العيد، وأدعـوه أن ينضم إلينا في هذه النزهة التي نقوم بها إلى البحر، اعتذر في خجل، وتركني أمضي لأستمتع بالعيد مع أصدقائي. حتى شلة المقهى التي قدمت له في غربته شيئا من المؤانسة مـا لبث أن داهمها مجتمع الجفـاف والعلاقـات الصـحراوية، بطريقة ساحقة ماحقة، فقد انفجرت في بداية الستينات قضية التنظيم السري الموالي لحزب البعث، والذي كان يعمل تحت

الأرض لقلب نظام الحكم، وجاءت الشرطة تبحث عن أحـد أفراد التنظيم في قهوة عبد ا لأنه كان واحدا من زبائنهـا، فقبضت على الرجل وأقفلت المقهى، ولم تسمح بإعادة فتحـة إلا بعد أن أخذت تعهدا من صاحبه عبد ا الشوشـان بـألا يسمح في قهوته بانعقاد الجلسات الثقافية أو استقبال الزبـائن المشبوهين مرة أخرى. وتنفض من ذلك التاريخ لقاء المثقفين الأسبوعي في قهوة عبد ا . غادرت أنا طرابلس بعد ذلـك لأقيم عدة سنوات بعيدا عنها بغرض الدراسة. ومرت سنوات أخرى بعد أن عدت، قبل أن التقي فـي مطلـع السـبعينات بالهادي التونسي، في إحدى الأمسيات الفنيـة التـي يقيمهـا معرض طرابلس الدولي، يحمل طفلا في حضنه، وبجـواره سيدة ترتدي غطاء الرأس، وتجر أمامها عربة أطفال، ومـن حولهما عدد آخر من الأولاد والبنات. عرفت منـه عنـدما أسرعت لتحيته أن كل هؤلاء أولاده وبناته، وأن عددهم سبعه أولاد وثلاثة بنات، والباقية ستأتي بـأذن ا ، لأنـه يحـب الأطفال ولن يتوقف عن إنجابهم حتى آخر العمر.

لقد صنع الهادي التونسي أخيرا قبيلته، ولم يجد خيطا يدله على أهله في طرابلس، فأنشأ لنفسه أهلا، ولم يجـد لـه

جذورا، فجعل نفسه جزرا لشجرة فرعها ثابت ورأسها فـي السماء، وصار بإمكانه ألا يقضي العيد وحيدا. سيقضيه وسط هذا الحشد الهائل الصاخب من الأولاد وكنت ألقاه في شوارع طرابلس من حين لأخر، ويأتي ذكره عند التقائي بأصـدقاء يعرفونه، فأطمئن من كلامه وكلامهم إلى أنه يعـيش حيـاة ميسورة وأنه وجد الطريق أخيرا لإثبات نسبه الليبـي فقـد أضاف إلى اسم قبيلة تسكن مناطق الحدود مع تونس، كما إن الجهود الكبيرة التي كان يبذلها لإتقان الحديث باللهجة الليبية قد تكللت بالنجاح بحيث صار من المستحيل أن تجد فيها أي أثر للهجة القديمة.

وجاءت بعد حرب ٧٣، تلك الفورة النفطيـة التـي رفعت عوائد البلدان المنتجة للنفط إلى مستويات دخل قياسية، وتبع ذلك ارتفاع أقدار بعض الناس ارتفاعا فجائيا، وكان بين هؤلاء الهادي التونسي، الذي صار اسمه يتردد في مجتمـع المدينة باعتباره أكبر اسم في عالم العقـارات، وأقـرأ أنـا المقالات عن شركاته وأرى صورته في الصفحات الإعلانية التي يشتريها لتهنئة رجال الإدارة والوزارة فـي المناسـبات والأعياد، فأعجب كيف أضحى ذلك الفتى الذي جاء طرابلس

وحيدا غريبا لا يجد له مأوى إلا بين سقالات البنـاء يـتحكم اليوم في سوق إسكان المدينة بأسرها. أذكره وأحارب نزعة الحسد التي تراودني، لأنه بلغ ما لم أبلغه بكل السنوات التي قضيتها في التحصيل العلم، ولأننى رغم تجذري فـي هـذه البيئة وهذه المدينة مازلت أسكن شقة صغيرة بالإيجار، قائلا في نفسي، إن الرجل حصل على ما حصـل عليـه، نتيجـة لضربات الحظ العمياء وقوة الدفع الغريـزي التـي تجعـل الإنسان الذي افتقد في حياته الاستقرار والأمان، يبحث عنهما ولو أفنى عمره في لعبة تعويضية عبثيـة، مصـمما علـى الوصول إلى غرضه مهما استخدم في سبيل ذلك من وسائل، ثم أستغفر ا في سري، واتجه إليه بالحمد على ما أعطـاني من خير وما أسبله علي من ستر.

لم تمض غير سنوات قليلة، لعلها ثلاث أو أربع سنوات على سطوع اسم الهادي التونسي في عالم العقارات، حتـى صدرت في البلاد القرارات الاشتراكية في النصف الثاني من عقد السبعينات، التي تقضي بأن تؤول كل الشركات للعاملين فيها وتؤول المساكن لمؤجريها والممتلكات الأخرى للدولـة لإعادة توزيعها على المحتاجين من أبناء الشـعب، لأنـه لا

يحق لأي إنسان أن ينتفع بأكثر من مسكن واحد له ولأسرته. تذكرته عند صدور هذا القرار وأنا أحس بالأسى والإشفاق عليه، وهو يجد أن كل ما شيده وما قضى أجمل سنوات العمر في جمعه بأية وسيلة يتبخر في طرفة عين.

علمت فيما بعد أنه استقبل كل ما حدث له بأريحية ورحابة صدر، وأنه ألقى خطابا في عمال البناء وموظفي الشركة الذين جاءوا للاستيلاء على مكتبه بأنه لم يكدح ويكافح إلا من أجل المجتمع وأنه سعيد بأن يرى كل ما يملكه يصبح ملكا للشعب، وأنه يحس بأن حملا كبيرا قد أزيل من فوق كتفيه، وأن من حقه الآن أن يخلد للراحة بعد إن أدى رسالته نحو أهله وبلده، وتحققت سريعا أمنيته في الخلود إلى الراحة، لأنه ما إن عاد إلى بيته، حتى انهار فوق الكرسي الفوتيل الذي تعود الجلوس عليه دائما أثناء وجوده في البيت، ومن حوله أولاده وبناته يواسونه ويواسون أنفسهم لما حدث. طلب كأس ماء. شرب منه جرعة صغيرة. ثم ارتعش جسمه قليلا ومات.

العذاب

تفجرت فجأة، بصوت غريب حاد، لـيس كصـوت البشر ... بل كصرير أبواب الخـزائن الحديديـة القديمـة المهجورة، التى تختفى تحت ركام الصدأ والغبـار وخيـوط العنكبوت.

لماذا...؟

لم تكن لماذا هذه هـى تلـك (اللمـاذا) القديمـة، المستهلكة، التى تهرأت وتمزقت استعمالا يومياً.. هى لمـاذا أخرى غريبة قوية، كأنما لم تنطقها شفاه بشرية من قبـل... كأنما ظلت حبيسة قمقم منذ ملايين السنين ثم جـاءت هـذه اللحظة لتحطم القديم. وتتفجر كالمارد.

لماذا...؟

أحس عامر النمرود بأنه لا بد أن ينطقهـا بزمجـرة عالية، هادرة كأنه وسط آلاف الحشـود البشـرية يزجرهـا وينهرها... بينما كان وحده، لا وجود لأى كائن آخـر فـى الحجرة المقفولة معه... لم يدر لمـاذا؟ ... ولكنـه أطلـق (لماذا) وكأن ثمة قوة لا إرادية تسكن جسده، وأن ثمـة زر

داخل هذا الجسد، داسته اليد الغريبة اللا إرادية فإذا بلمـاذا.. تتفجر.. هادرة مفرقعة كالبركان..

بل إن عامر النمرود، لم يكن يـدرى بالضـبط مـا السبب؟

من أجل أى شئ يحتج؟ من هل خصمه؟ مـا الـذى يريده لم يستطيع أن يحدد – رغم ما يزحم به وجدانه – لمن يوجه لماذا هذه. كان يقولها وكأنه لم يقلها مات من فوره هى أتعس اللحظات هذه التى يجد فيها عامر النمرود نفسه وحده وجها لوجه من أشباح ذاته.. عندما يجـد آلاف الأطيـاف، ليست أطياف هى شياطين وعفاريت ومرده، تهجـم عليـه بعنف وقوة، تتلبسه وتهزه وتمزقه، وتجعلـه يعـانى تلـك اللحظات، ألماً وعذابا فوق طاقة البشر.

وقد يهرب منها، قد ينام حتى لا يبقى فى عينيه ذرة نوم، قد يجعل العمل الـوظيفى يسـتغرقه ويمـتص دقـائق وساعات يومه، من أجل ألا يعطى فرصة للشياطين اللعينـة كى تستلمه عندما يكون أمام نفسه وجها لوجه.. وحيدا فـى تمام يقظته وتنبهه وتفتح حواسه وشرايينه.

إنه يخاف من نفسه، كأنما هى ليست ذاته التى يعيش بها... هى كائن آخر... عدو يريد أن يترصد له ويرتكـب جريمة قتله.

وللنوم مهما طال، وللعمل مهما كثـر وتمطـط ... نهاية، يجد بعدها نفسه مضطراً إلى أن يرجع إلى الحجـرة الرمادية الكئيبة، وأن يلتقى بعدوه وجها لوجه...

- ها أنذا ... اقتلنى

كان يستسلم استسلاما لا إراديـا لهـدير مشـاعره العنيفة السوداء... ربما يقاوم فى البداية قليلاً، يشد أعصـابه ويحتفظ بأنفاسه منتظمة، ويضبط طرقات قلبه، إلا أنـه فـى النهاية كان يستسلم ... ترتخى عضلاته، وتهـدج أنفاسـه، وتنطلق طرقات قلبه كوقع أقدام الخيول... ويسلم نفسه أسيرا ذليلا للجيوش القادمة ... تماما كالغريق الذى يقاوم المـوج، ويتشنج ويصرخ حتى إذا حس أن لا فائدة، كف عن التشـنج والصراخ وأسلم نفسه للأموج بل كثيرا ما كـان رد الفعـل المفاجئة والاستلذاذ بالغرق ... يسبل الغريق رموشه محاولا أن يستمتع بالغرق... تستبد به شهوة جهنمية مدمرة.. وهكذا فان عامر النمرود مع أمواجه هذه الغرفة الرمادية الكالحـة،

كائن آخر، يعيش هذه الحياة الأخرى يتعذب بها، ويتألم مـن أجلها، ويستسلم لها، يغرق فى حوار من أشباح ذاته... حيث يتحول الماضى والحاضر والمستقبل إلـى عجينـة زمنيـة واحدة، يعيشها عامر النمرود بكل زخمهـا ومرارتهـا ... ويتحاور مع هذا العالم حوارا آخر غير الحوار الساذج الذى يستهلكه يوميا فى حياته مع الناس... هذه الحجرة.. صندوقه الرمادى العجيـب.. عالمـه الأخـر المـيء بالإيحـاءات والإيقاعات والرموز والأطياف ... حياتـه هنـا... حياتـه الحقيقية العميقة هنا.. حيث الكائن الآخر فى ذاتـه يلتهـب ويتفجر ويتمرد على كل سخافات الكون.

لماذا ....؟

كأنها صوت شرائح لحم بشرى يتمزق.. لحظة، ظل عامر النمرود جامداً مصعوقاً... كأن مسـا كهربائيـا قـد أصابه، عاد إليه ومضه ونبضـه وحركتـه... لقـد عـاود الصراخ بها دون أن يدرى وتنبه عامر النمرود إلى أن هـذه ليست المرة الأولى التى يصرخ فيها (لماذا)، ولكنها فى هذا اليوم وهو يقولها لأول مرة وهو يعيدها مرة أخرى، كانـت تكتسب غرابة جديدة، إلى الحد الذى جعل هو نفسه، يستغرب

من نفسه ... حتى الآن لم يتوصل إلى من بالضـبط تتجـه لماذا هذه؟ ... وينزلق تدريجيا فى عالمه الغريب... ليقينـه أنه فى عالم ذاته السحرى العامر بالأشجان والأطياف حيـث يتداخل الماضى، بالحاضر، بالمستقبل سوف يتلقى بالكـائن الذى يوجه إليه هذا الاحتجاج.

لعله كان يؤمن أن الإنسان لم يولد إلا ليتعـذب ... من أجل هذا كان عامر النمرود يتعذب بارتيـاح وسـعادة، يبحث عن العذاب ليعانيه ويعيشه ويذوب معه... حتى تحول إلى مرجل يغلى بالعذاب، لا يعطى الفرصة لأى درة سعادة تفسد عليه عذابه... بل أن هذه الذرات السعيدة إن جاءت فلا بد أن تذوب وتتفسخ داخل ذاته... قال يخاطب كائنه الأخر..

ألا يكف مرجلك عن الغليان؟

لأن الأحطاب التى تحته لا تكف عن الاحتراق

الأحطاب؟

نعم الأحطاب والهشيم والقش... الكل يشتغل.

لماذا الكل؟

لأن العود لا يحترق وحده، إنه يحترق ويجعل كـل الأعواد تحترق.

ولماذا لا تكون أنت أيضاً عودا يحترق؟

لا ... أنى أفضل أن أكون مرجلا يغلى،

وعندما تكف الأعواد عن الاشتعال.

لا. لن تكف... لأنى سأنفخ رمادها حتـى تشـتعل ليعود لى غليانى.

أنك معذب محترف.

لقد ولدت لا تعذب.

ولعل عذابه ابتدأ منذ أن لقم أثداء النسـاء ليشـرب حليبها لقد ماتت أمه وهى تلده أخذوا يدورون به على النساء لتتبرع كل أم فترضعه قليلا من حليبهـا... حتـى رضـع عشرات النساء... اختلط فى بدنه حليب عشرات الأمهـات، نمى بدنه بهذا الخليط العجيب فنمى أكثر إدراكا لغرابة العالم وأمزجته المتداخلة المتنوعة.. حتى عندما يسافر إلى قريتـه تتلقاه هناك عشرات العجائز، كلهن أمهاته...

لقد أرضعتك.. إننى أمك

ورغم أنه لا يحبهن جميعاً، ولا يشعر نحوهن بأيـة عاطفة، إلا أن الذى يجعله يتحمس هو الغرابة فى الموضع.. كان يتمتم..

- أمهات كثيرات... وابن واحد

إلا أن والده لا يؤمن بأن لديه أمهات كثيرات، هناك أم واحدة ماتت. لهذا فمنذ أو وعى وصوت والده يفرقع فـى وجهه،

لقد كنت دائما نحسا... قتلت أمك يوم ميلادك

كيف؟ أنه لم يقتل أحدا لا يتذكر أنه قتـل أو ودان يقتل أى إنسان فى الوجود يقولون أنه قاتل أمه هل أنا قاتل؟ وتتداخل الجد ران وتمتزج الأطياف والمرئيات، لتتبدى لـه محكمة أقامها الكون كله لتحاكمه وتدينه يفرقع فى أذنيه نداء الحاجب الأسود، محكمة، ... إذا بالقضاة واللحى والعمـائم والمنصات والأيام المكتوبة تحاصره. ثم ميزان العدالة الكبير الرهيب يتمايل ويترنح على الجدار... ثم تتساوى صـنجاته ليسمع الحكم... هل أنا القاتل.. أنك القاتل.. لماذا.. لماذا أنا قاتل؟

لماذا ....؟

كعواء كلاب شرسة... لماذا تلك التى فرقعت دونما هدف، منذ لحظات، ها هى تفرقع من جديـد، ولكـن هـل وجدت هدفها، هل وجـد فـى عالمـه السـحرى السـبب.

والخصم.. وتعود الجدران تترنح إلى مكانها ويتساوى السقف فوق رأسه، ويغادر القضاة والمحكمـون المكـان يحملـون ميزانهم فوق أكتافهم... وتعود التسمية التى أطلقوها عليه فى البيت تلح ... وتدق ... وتزمجر كأنها رياح أبدية تطارده.

- يا قاتل أمه...

طالما أحس بالخجل والشعور بالذنب وهو يسمع هذا النداء يوجه إليه... والآن يشعر أن أحاسيسه القديمة تتبخـر ... يحس بنفسه خفيفاً نظيفاً متحرراً من كل ذنب وكل خجل ... بل كان السقف يتشقق عن فتحات تتسرب منهـا حكمـه الكون كالعصافير ... تنصب أعشاشاً فى رأسـه، وتبـيض أسئلة على شفتيه.

من المذنب؟

أنا المذنب الذى ماتت بسببه؟ أم هى التى قدمتنى إلى هذا الكون؟

صار عامر النمرود يرفض الآن إحساسه القديم بأنه صاحبة الفضل عليه عندما أنجبته وأنه كان نحسـا وشـوما عندما ماتت بسببه. والعكس هو الحق.. هو الحكمة العادلـة الخالدة.. لم يكن شوما، كان فارس الخلاص الذى أنقذها من

تعاسة الوجود.. فى حين هى كانت شوما ونحسا وهن تقدمه بدلا منها إلى تعاسة الحياة. وكأنما اسـتراح راحـة نفسـية عميقة وهو يصل هذه النتيجة... فاسبل رموش عينيه وقـال كأنما يخاطب طيفا لا مه جاء يزوره..

- أماه ... ها أنذا أتعذب بالنيابة عنك!

العريس

كان الوقت صيفا..

وكانت القرية تحتفل بزفاف " إبراهيم " ابن المزارع " أبو القاسم " الذى عرفه أهل القرية شابا ورعا تقيا، حفظ القرآن الكريم على أيدى أحد الرجال الصالحين وصار بدوره يقوم بتعليم أطفالهم القراءة والكتابة، فأحبوه وأصبحوا يأتون إليه بمشاكلهم ونزاعاتهم ليقوم بحلها وإبداء الرأى فيها بما عرفوه فيه من حكمة ورجاحة عقل حتى استطاع أن يحتل مكانة مرموقة بين رجال القرية.

ولذلك فقد جاءت القرية كلها بنسائها ورجالها وأطفالها تحتفل بزفاف إبراهيم إلى ابنة عمه فاطمة.. نصبوا خيمة كبيرة فى ساحة أمام بيت إبراهيم، ومدوا البسط التى تمت استعارتها من مختلف بيوت القرية، وجلست النساء بينهم العروس فى جانب وفى الجانب المقابل جلس الرجال وبينهم العريس، اصطف عدد من الصبايا اللاتى يقمن بالنخيخ فى مقدمة النساء، رفعن الأغطية عن الشعر الأسود الذى تهدل فوق وجوههن، بدأت موسيقى الفرح، نفخ مرزوق فى قربته ووضع أصابعه على فتحات المقرونة وأرسل أنغامه العذبة،

وبجواره جلس مسعود مغنى القرية يطرق بعصاه على صندوق أمامه فى حين تمايلت رؤوس الصبايا على أنغام المقرونة، وصارت أيديهن المخضبة بالحناء تتهادى فى حركة موازية لحركة الشعر الذى يواصل رحلته جيئة وذهابا، بدأ الفرح وانطلقت الزغاريد تملأ المكان، وانهمك الرجال فى التصفيق وترديد الغناء مع مسعود، فالليلة عرس ابراهيم.. الذى تأخر كثيرا بسبب أعوام الجفاف، ولكن الموسم هذا العام كان موسم خير ؛ فقد جاءت الأمطار بعد غياب طويل، وخرج الناس إلى الحراثة، وأنتجت حقول الشعير محاصيل وافرة.

أتم ابراهيم حصاد حقله وأرسل إلى السوق حمولا كثيرة درت عليه خيرا وفيرا، وملأ مخازن البيت بمؤونة من الشعير تكفيه طوال العام، ورأى أن الوقت مناسب لأن يكمل نصف دينه، ويحقق أمله وأمل أبويه من الزواج من ابنة عمه فاطمة، وها قد تمت مراسم الزواج وهاهى ليلة القنديل، وغدا سوف يزف إلى عروسه فاطمة، كانت الفرحة تغمر قلب إبراهيم وهو يردد الغناء مع مسعود وينظر فى حب إلى شعر فاطمة وهى تشارك النخيخ مع الصبايا وإلى أصابعها

المخضبة بالحناء وإلى الخاتم الذى أهداه لها وهو يشع فى يدها، ثم فجأة توقف العرس، توقف مرزوق عن عزف المقرونة، وتوقف مسعود عن الإنشاد، وتوقف الرجال عن ترديد الغناء، وتوقفت النساء عن إطلاق الزغاريد، وغطت الصبايا رؤوسهن بالألحفة وتوقفن عن النخيخ، فقد سمعوا فجأة صراخا يأتى من أركان القرية البعيدة يقول:

- الطليان.. الطليان.. الطليان..

كان الأمر مفاجأة للجميع..

الطليان.. يالها من كلمة بشعة كريهة، فهى تعنى الموت والدمار والتخريب، الطليان هم الذين جاءت إلى القرية أخبارهم عندما اغتصبوا الأرض، واستباحوا الأعراض وقتلوا الأطفال والنساء، وأحرقوا المزارع، وهدموا البيوت والمساجد.

- الطليان.. الطليان.. الطليان..

- عليهم لعنة ا .

قالها إبراهيم، وانتفض يعدو باتجاه الصوت، وتبعه بقية الرجال فى حين انطلق صراخ الأطفال والنساء خوفا وهلعا من الكوارث التى يوحى بها اسم الطليان.

ما إن وصل الرجال إلى أطراف القرية حتى وجدوا نساء وأطفالا وشيوخا يصرخون، يحملون جرحاهم، وقد جاءوا من القرية المجاورة التى اجتاحها عساكر الطليان يلتجئون إلى هذه القرية، لقد تركوا الرجال يقاومون الطليان هناك وفروا بأطفالهم إلى هنا، كان البعض منهم قد سقط فى الطريق نتيجة لما أصابه من جروح، وفى حين بقى عدد من الرجال لرعاية هؤلاء الأطفال والعجائز والاهتمام بعلاجهم ومأواهم، أخذ الآخرون ومن بينهم إبراهيم جيادهم وذهبوا لإنقاذ الجرحى الذين سقطوا فى الطريق، وتعاهدوا جميعهم على اللقاء بمسجد القرية بعد أداء مهماتهم.

قبيل الفجر بقليل التقى الرجال بالمسجد، كان الغضب يرسم علاماته على وجوههم، آثار دماء الجرحى الذين أنقذوهم ما تزال عالقة بملابسهم، إبراهيم كان ما يزال يرتدى ملابس العرس التى تخضبت هى أيضا بالدم، قال فى انفعال وثورة:

- لقد غدروا بنا، لقد عقدوا هدنة كاذبة مع المجاهدين ما لبثوا أن نقضوها.

قال رجل آخر:

- لقد أخطأنا عندما فاوضناهم..

جاء صوت آخر يقول:

- وهل يتفاوض الإنسان مع الأفعى.. لا ينفع مع الأفعى إلا أن تقطع رأسها..

قال إبراهيم معقبا:

- يجب أن نذهب جميعا لقطع رأس الأفعى.

طلب أحد الرجال شرحا من إبراهيم الذى واصل كلامه:

- أريد أن أقول إن الطليان قد نقضوا العهد، وها هم يجتاحون إحدى القرى المجاورة، إن المدد يجب أن يذهب منذ الآن إلى إخواننا الذين يقاومون هناك، لا شك أن المجاهدين قد تنادوا من كل مكان لرد هذه الهجمة الجديدة، وعلى كل واحد قادر على حمل السلاح من رجالنا وأبنائنا أن يأتى بسلاحه ومئونته لنذهب من فورنا إلى أرض المعركة..

مضت فترة صمت قبل أن يرتفع صوت أحد الرجال قائلا:

- والعرس؟

- قال إبراهيم مندهشا:

- عن أية عرس تتكلم؟

كان إبراهيم فى غمرة هذه الأحداث المهولة قد نسى أن البارحة هى ليلة القنديل ومساء هذا اليوم يجب أن يزف إلى عروسه فاطمة..

قال الرجل:

- عرسك يا إبراهيم؟ ألا تنتظر قليلا حتى يفرح أهلك بزفافك الليلة، ثم ننطلق جميعا إلى ساحة الجهاد فى صبيحة اليوم التالي؟.. والدك أبو القاسم شيخ طاعن فى السن وهو يريد أن يفرح بك قبل أن يموت..

انتفض إبراهيم غاضبا:

- وهل هذا وقت أفراح وأعراس؟ ألا ترى من حولك الجرحى والقتلى والأرامل والأيتام حتى تطالب بإقامة العرس؟.. هيا اذهبوا وأحضروا بنادقكم ومئونتكم وجيادكم فلن يمضي ضحى هذا اليوم حتى نكون بجوار إخواننا الذين يقاتلون الطليان.

عندما جاء الضحى ووصل إبراهيم وصحبه إلى القرية المجاورة وجدوا أن المعركة ما زالت على أشدها بين المجاهدين والطليان، ووجدوا أيضا أن رجالا كثيرين هبوا

من القرى الأخرى لنصرة أهلهم وذويهم فى هذه القرية، ووجد عساكر الطليان أنفسهم فى حصار يضربه المجاهدون حولهم، وكأن شحنة الغضب التى تملأ صدر إبراهيم قد انتقلت إلى جواده الذى ارتفع صهيله ومضى يعدو به حتى اخترق صفوف عساكر الطليان يشتبك بهم ويخترق بالحربة المثبتة فى مقدمة البندقية صدورهم ينتقم لكل أولئك الشهداء والجرحى والأرامل والأيتام الذين نكل بهم هؤلاء الأعداء، ورآه بقية المجاهدين يقتحم معاقل الطليان، فانطلقوا وراءه يشتبكون بالسلاح الأبيض مع عساكر الطليان، وبدأ النصر يلوح قريبا للمجاهدين، وارتفعت زغاريد النساء وهن يشاهدن عساكر الطليان يتساقطون تحت ضربات المجاهدين، ومن بقى منهم صار يفر هاربا، وما أن انقضى النهار حتى فر آخر جنود الطليان ممن نجا من الموت.

كان إبراهيم قد أصيب أثناء المعركة بجرح فى زنده الأيمن جعله ينزف دما كثيرا، فنقل مغميا عليه إلى البيت الذى خصصه أهل القرية لعلاج الجرحى..

لم يكن إبراهيم يعلم أن عروسه فاطمة كانت واحدة من نساء كثيرات جئن من مختلف القرى المجاورة لكى يلتحقن

بالمعركة، ويقمن بواجب الاعتناء بالجرحى، وعندما أفاق من غيبوبته كانت مفاجأة له أن يرى عروسه فاطمة هى التى تسهر عليه وتضمد جراحه. نظر إليها فى حب واعتراف بالجميل قائلا لها بعينيه كلاما لم يقله بشفتيه.

- نعم يا فاطمة، سوف نقيم الأفراح ونكمل العرس.. لأن عرسنا اليوم سيكون عرسا للوطن.. عرسا للانتصار الذى حققه المجاهدون على أعداء الإنسان.

العقاب

أفزعنى وأنا أتجول فى مركز المدينة، وأمشى متمهلا فوق أرصفة الشوارع الكبيرة العامرة بالمتاجر والمقاهى والبشر أننى لا أهتدى إلى إنسان واحد أعرفه.

كنت قد تركت منزلى مبكرا، لأن زوجتى كانت تستقبل بعض زائراتها، واخترت قبل أن أذهب إلى مكتبي، كما أفعل كل مساء، أن أمضى إلى مركز المدينة وأستعيد بعض ذكرياتى مع من ألقاه صدفة من أصدقائى الذين أدمنوا الجلوس فى المقاهي.

سرت تائها وسط هذه الوجوه الغريبة التى لا أدرى من أين جاءت، وكيف امتلأت بها شوارع المدينة فى غفلة مني، فهى مدينتى التى لا أعرف مدينة سواها، ولدت فى بيت من بيوتها القديمة التى تجاور البحر، وذهبت صغيرا إلى مدارسها، ولعبت كرة الخيش فى حواريها، وغذيت أوهام الحب أيام الصبا، من أضواء شرفاتها ونوافذها، وأهرقت أيام الشباب فوق أرصفتها، وتعلمت تدخين السجائر والثرثرة فى السياسة فى مقاهيها، يحيط بى الأصدقاء أينما ذهبت، فكيف وأنا على مشارف الخمسين من عمرى الذى أعطيته لها أجد

نفسى غريبا فى شوارعها، كأننى أدخل مدينة لم أرها ولم ترنى إلا هذا اليوم.

ومن ميدان الشهداء إلى ميدان الجزائر، عائدا عبر كورنيش البحر إلى الجزء القديم من المدينة، حيث ميدان الساعة، وسوق الحلقة، وسوق الترك، وباب الحرية، وشارع الرشيد، ثم عائدا عبر شارع عمر المختار الى ميدان الشهداء مرة ثانية، أمرق من شارع الى شارع، وأقف أمام المقاهى أتصفح وجوه الجالسين فلا أجد أحدا أعرفه. كيف حدث هذا؟ ولماذا؟ وما هو السر الذى أفرغ المدينة من كل سكانها الذين أعرفهم. تذكرت أننى شخصيا لم أقم بمثل هذه الجولة فى مركز المدينة منذ أكثر من عامين، ومع أننى أسكن حيا محاذيا لهذا المركز هو حى المنشية إلا أننى لا أكاد أجد وقتا لمثل هذا التسكع الجميل، الذى كان عادة يومية فى أول مراحل الشباب. مكتبى بمركز البحوث التاريخية، الذى كان يأكل ساعات الصباح، صار الآن يستولى على كل ساعات المساء، بعد أن صرت رئيسا لقسم الوثائق بهذا المركز. وما تبقى من فراغ، فهو محل صراع لا ينتهى بين الواجبات العائلية والمنزلية، وبين مهمات علمية خارج المركز، فلماذا

أستغرب إذا كان أصدقائى هم أيضا مشغولون مثلى بمسئولياتهم العملية والعائلية التى تمنعهم من ترف التسكع فى الشوارع والجلوس فى المقاهي. ثم لماذا أنسى أن مدينة طرابلس لم تعد تلك المدينة التى لا تضم سوى أهلها، كما عرفتها أيام الطفولة والصبا. لقد كبرت، وتضخمت وارتدت أقنعة المدن الكبيرة التى لا تظهر عواطفها للناس. خاطبت نفسى بمثل هذا الكلام باحثا عن أعذار لمدينتى التى تعاملنى هذا المساء معاملة الغرباء.

تذكرت أننى أعرف صديقا قديما يملك دكانًا فى سوق المشغولات اليدوية، فذهبت مسرعا إلى هناك أبحث عنه، فلا شك أن وجوده سوف يخفف قليلا من وطأة هذا القلق الذى أشعر به. كان سوقا صغيرا مسقوفا، به حلقة من دكاكين أصحاب الحرف اليدوية، وتجار الهدايا التذكارية. كان بعضهم قد أخرج طاولة أمام دكانه ووقف يستخدم مطرقة وينقش أشكالا تقليدية فوق صحون الفضة والنحاس التى يبيعها للسواح. لم أستطع أن أهتدى إلى دكان صاحبي، وتفحصت وجوه أصحاب الدكاكين فلم أعثر عليه بينهم، لكن الجو العامر بالزحام وصخب النقاشين، أنسانى خيبة أملى فى

العثور عليه. فصرت أتنقل من دكان إلى آخر، أتفرج على المعروضات وأقف قليلا أمام هؤلاء الفنانين الشعبيين أتأمل الغزلان والأهلة والأسماك والطيور والزهور التى يرسمونها فوق الصحاف، دون أن أنسى المهمة التى جئت من أجلها، وهى العثور على إنسان أعرفه، يطرد من قلبى هذا الفزع الذى أصابنى وأنا أجد نفسى غريبا فى مدينتي. وانتبهت فجأة إلى أن الطرقات التى كانت تملأ فضاء السوق قد بدأت تخفت تدريجيا ولم أعرف سببا لذلك، إلا عندما أجلت بصرى بين أصحاب المطارق، فوجدتهم يمدون أعناقهم وأبصارهم باتجاه نقطة محددة فى منتصف السوق، حيث تنتصب قاعدة رخامية أقاموا فوقها معرضا لمشغولاتهم، وأمام تلك القاعدة، وقفت امرأة تتفرج على المعروضات، هى التى أثارت اهتمامهم.

أصابنى ما أصابهم من ذهول، فقد كانت المرأة من ذلك النوع الذى لا نلتقى به إلا نادرا فى الحياة. قد نراه طيفا على الشاشة، وقد نرى صورته على أغلفة المجلات الملونة، أما أن نراه يخطر أمامنا، كائنًا مفعما بالحيوية والحياة، يمشى ويتحرك ويقف بقربنا، فهذا ما كان يستحق أكثر من مجرد

وقفة ذهول، إنه يستحق أن ينخرط الجميع فى السجود شكرا الذى أبدع هذا الجمال وأرسله إليهم، كان أول سؤال خطر على ذهني هو، هل ينتمى هذا الجمال إلى هذه البيئة؟ هل هى حقا امرأة ليبية؟ إنه مكان يضج بالسائحين والسائحات من زبائن الهدايا التذكارية. ولكننى أراهن على أنها امرأة ليبية؟ لن يخدعنى هذا الزى الذى ترتديه والذى بدا بأناقته وانسجام ألوانه، وجمال المساحات الفارغة التى يتركها لإظهار مفاتن الجسد فى منطقة العنق والصدر والكتفين، إنه ينتمى إلى أرقى بيوت الأزياء الفرنسية، ولن يخدعنى هذا الشعر الناعم السواد الذى صنعت منه تاجا، وزينته بمشابك الذهب وتركت سباسب منه تسقط فوق الجبين والخدين، لتظهر التباين الجميل بين سواده ونقاء بشرتها فبدت وكأنها أميرة جاءت من مدن الأساطير، لن يخدعنى ما بدا فى مظهرها الخارجي، من ارتفاع عن موروثات البيئة المحلية، فأهمل رؤية ذلك الشيء الذى ينتمى انتماء حميما إلى هذه الأرض وهذه البيئة، والذى يظهر جليا فى جمال وسواد عينيها، وكأنهما استعارا هذا السواد وهذا الجمال، من عينى أجمل الغزالات فى الصحراء الليبية ويظهر فى لون بشرتها،

ذلك اللون الذى يشبه السهوب الرملية التى انعكست عليها أشعة شمس آخر النهار، وتظهر أيضا فى استدارة هذه الوجه القمري، وشدة صفائه ونقائه، متفقا مع مقومات الجمال كما يحددها الموروث الشعبي. ثم هناك شيء آخر أبعد من أن يحيط به الوصف الخارجي، لأنه يتصل بتلك الدبدبات التى نتلقاها من إنسان تغذى بشمس وهواء ذات البلاد التى تجمعنا، والتى تمنحنا شفرة سرية، نستخدمها فى الاهتداء إلى أبناء وبنات بيئتنا. وقفت ذاهلا أتأملها، وأشكر ا أن كافأ رحلتى إلى مركز المدينة بما رافقها من قلق وعناء هذه المكافأة السخية التى لم أكن أنتظرها، فها هو الوجه المألوف الذى أردت أن أراه، يتخذ شكلا جديدا وغير مألوف، ولكنه عامر بعناصر الدهشة والإبهار، يتخذ شكل امرأة ليبية، نزعت عن وجهها الأغلفة القديمة، وخرجت إلى الشمس والهواء، وهى تتألق جمالا وفتنة وكبرياء. ولعل ليبيتها هذه هى التى جعلتنى أنفعل بجمالها أكثر من انفعالى بكل من رأيت من جميلات الدنيا أثناء سياحاتى بالخارج، لأنه جمال يخاطبنى بلهجتى المحلية ويتجه إلى مراكز الحس والذاكرة، فيثير كل العواطف والانفعالات التى أنبتتها هذه البيئة فى

نفسي. ولو كان عمرى قريبا من عمرها وكنت شابا أعزب لم أتزوج بعد، لدخلت أعتى المعارك من أجل الفوز بها. ولكن قطار العمر مضى بعيدا عن أية محطة تتيح لقاء بينى وبينها ولم يبق أمامى إلا أن أطوى حسرتى فى قلبي، وأكتفى بنعمة النظر إليها والارتواء من جمال عينيها، دون أن أمد بصرى وفكرى إلى أبعد من ذلك.

كان أصحاب الدكاكين قد عادوا لاستخدام مطارقهم، ونقش رسومهم، بعد أن أرضوا فضولهم، واستوعبوا صدمة الالتقاء بهذا الجمال. عاد السوق إلى صخبه وواصلت أنا الاستمتاع بصخب آخر تضج به الدماء فى عروقي. إنها امرأة بعيدة المنال فلا أقل من أن أحتفظ بصورتها فى ذاكرتي، لكى أستحضرها وأتدفأ بنار فتنتها فى ليالى الشتاء. سأتأملها جزءا جزءا، وأحتسى جمالها جرعة جرعة، الشعر والجبين والحاجبين، الرموش والعينين والخدين، الأنف والشفتين، العنق والنهدين، الخصر والأرداف والساقين، كل ذلك فى رداء جميل من الشموخ والكبرياء، فمن أى مكان من هذه المواقع، تنطلق السهام التى تخترق القلب؟ ومن أين لخراط البنات كل هذه المهارة، ليضع كل هذه الفتنة فى جسد

امرأة واحدة؟ وكم كأسا شربت من خمر هذا الجمال، حتى تخدر جسمى بالنشوة والثمالة؟ وكأنها انتبهت لنظراتي، فرفعت رأسها وشيعت رموشها، تنظر نحوي. اصطدمت نظراتى بنظراتها، فأزحت بصرى عنها مرغماً وكأننى أخشى أن تعاقبني، لأنها أمسكت بى متلبسا بالنظر إليها. ولدهشتى الشديدة، رأيت المرأة تتحرك من مكانها، وتتجه نحوي. كنت قد أدرت بصرى إلى الناحية الأخرى، ولكن طرفا منه، كان يستطيع أن يلتقط صورتها وهى تسير باتجاهي، بإيقاع منتظم يعزفه كعب حذائها العالي. اعتقدت، عندما اقتربت مني، أنها سوف تتجاوزنى وتمضى إلى صاحب الدكان الذى أقف قريبا منه، ولكنها وقفت أمامى فأدرت لها وجها أذهلته المفاجأة، لأنها وضعت رموشها سهاما فى صدري، واحتوتنى بابتسامة أضاءت الدنيا من حولي، وبسطت يدها لتحيتى فوضعت يدى فى يدها وكأننى لا ألمس يدا، وإنما أتواصل مع جذور الفرح وعناصر الجمال فى الكون كله. وانفرج الفم البهيج عن أولى الكلمات التى قالتها:

- فرصة سعيدة أستاذ حامد.

ولا أدرى ما الذى شعر به ذلك الشحات الذى جاء غريبا إلى مدينة من مدن ألف ليلة وليلة ووقف وسط جمهور حاشد يشاهد موكب الأمير عندما رأى الموكب يتوقف، ورأى الأمير يهبط من محفته ويتجه إليه يأخذه بالأحضان. ولكننى لم أكن أقل استثارة ودهشة منه، وأنا أرى هذه المرأة التى تأتى لتحيتى وسط ذهول أصحاب الدكاكين وزبائن السوق. ترى من تكون هذه المرأة؟ وكيف عرفتني؟ ولماذا جاءت لتحيتي؟ إننى لست شخصية عامة يقصدها المعجبون ويطلبون التعرف إليها، ولا أذكر أننى التقيت فى حياتى بامرأة مثلها. بدا واضحا أنها تعرفنى معرفة حميمة، فكيف أستطيع أن أغفر لنفسى أننى لا أعرف أين ومتى وكيف التقيت بهذه الأنثى الساحرة. أضافت هى حطبا جديدا إلى مواقد النار التى أضرمت سعيرها فى صدري.

- ألا تذكرني.

يا لفجيعتى ما أعظمها. إننى فعلا لا أذكرها، لأننى لا أذكر أننى التقيت بامرأة لها مثل جمالها، الذى أبهجنى وعذبنى منذ أول لحظة. رأتنى واجما، ذاهلا، لا أقدر على النطق فأضافت:

- ألا تذكر تلك الطفلة التى أحبتك وأحببتها، وصنعت لها أول وآخر لحظة مجد وتألق فى حياتها.

وقبل أن أستوعب هذا الكلام المبهر، من الحب والمجد والتألق الذى جمع بينى وبينها فى أزمنة سالفة وجدتها ووسط هذا الحشد من البشر الذين يضمهم السوق، تغنى بصوت هامس ضاحك:

نحن زهور حدائقـهـا

نحن الحنة فى يدهـ ـا

نحن القرط بأذنيـ ـ ـها

نحن بنات مدينتـ ـ ـ ـنا

ثم توقفت عن الغناء لتقول:

- هل عرفتنى الآن يا أستاذ حامد

ولا أدرى كيف استنفرت الصدمة كل مداركي، وجعلتنى أستعيد شريط حياتى كله فى برهة خاطفة، وأتوقف عند اللحظة التى عرفت فيها هذه الفتاة وهى طفلة، فإذا بها واضحة بكل تفاصيلها فى ذهني، وكأنها لم تحدث إلا منذ أيام قليلة وإذا بى أهتف باسمها.

- خديجة.

أعدت الاسم مرة أخرى، وأنا لا أكاد أصدق أننى عثرت عليه وسط مخازن الذاكرة المليئة بأكداس المهملات. قلت من خلال أنفاسى اللاهثة:

- كيف لى أن أعرفك بعد كل ما حدث لتلك الطفلة من تحولات.

- أما أنت فما زلت، ما شاء ا ، كما أنت، منذ تلك الأيام.

كنت فى بداية التحاقى بالوظيفة مشرفا على النشاط المدرسي، وكانت خديجة فى أولى مراحل التعليم، فى عامها السادس أو السابع، أعجبنى نشاطها وحيويتها فأخذتها لتقديم فقرة غنائية فى إحدى الحفلات المدرسية. دربتها على الغناء وأداء الحركات التعبيرية، فلاقت عندما ظهرت على المسرح استحسان المتفرجين، ونشرت إحدى الصحف الطلابية صورتها، واسمتها الطفلة المعجزة ولكن والدها لم يعجبه اشتراكها فى الحفل، واعتبر أمها مسئولة عن ظهور ابنتها أمام الناس ترقص وتغنى، فكان ذلك سبب خصام بينهما أدى إلى الطلاق. أهملت هذه التفصيلة التى لم أعرفها إلا بعد

فوات الأوان، وأردت استحضار تلك اللحظات المبهجة عندما كنا نلتقى فى رحاب الفن الجميل.

- هاهى الطفلة المعجزة تعود إلى الظهور من جديد، فيالها من مفاجأة سعيدة.

أخبرتنى إنها تركت التعليم منذ ذلك الوقت، ولكنها استطاعت وهى داخل البيت أن تتعلم من أمها مهنة الخياطة حتى أتقنتها وصارت تكسب منها أضعاف ما يكسبه خريجو الجامعات.

- الفضل لك أنت فلولا تلك الحفلة لواصلت تعليمي، وانضممت إلى طوابير العاطلين من خريجى الجامعات.

أقلقنى أنها تحملنى مسئولية انقطاعها عن التعليم، وتسمى هذا الإثم فضلا. لقد كان الحفل، كارثة بالنسبة لها، فهو السبب وراء انهيار حياتها العائلية ولا بد أنها قاست كثيرا وهى تعيش حياة خالية من الأمان محرومة من التعليم، فهل تراها، ستنسب لى كل هذه الأفضال. لم أشأ أن أدافع عن نفسي، أو أتوقف عن هذه القصة التى تجلب الكدر. مضيت بسرعة أنقل لها سعادتى بلقائها وإعجابى بجمالها قائلا:

- لقد كنت نجمة منذ أيام الطفولة، وهأنا اليوم أراك تتألقين بشبابك وجمالك مثل النجوم.

أسبلت رموشها حياء، فى حين ذهب تفكيرى للبحث عن طريقة لا تحرجها، أبدى بها استعدادى لخدمتها إذا أرادت عونا ومساعدة. رأيتها تلتفت باتجاه امرأة تقف أمام أحد الدكاكين لم أتبين ملامحها، وتقول بأنها جاءت بصحبتها إلى السوق، فهى صديقة لها تصنع بعض المشغولات اليدوية فى بيتها، وتعطيها لمتجر يبيعها لها. كانت المرأة تنتظرها فمدت يدها مودعة. أخذت يدها أبقيها قليلا فى يدى لكى أطيل عمر هذه اللحظات المبهجة، متمنيا أن أراها مرة أخرى. ذهبت لكى تلتحق بصديقتها، وشيعتها بنظراتى وهى تبتعد، حتى توارت خلف بوابة السوق.

وقفت قليلا أحدق فى الفراغ الذى تركته خديجة، فرأيت وسط الفراغ طيفا شفافا يحمل شكل قوامها وملامح وجهها. لم يفزعنى الطيف، فأنا أعرف أنه نوع من خداع البصر، الذى جاء نتيجة الإجهاد والتركيز الشديد عندما كنت أنظر إليها. أغمضت عينى أحاول أن أطرد طيفها من بصرى وذاكرتي، ورجعت مسرعا إلى بيتي، وإلى غرفة

مكتبى أحتمى بها من سطوة هذا الطيف، ولا أدرى كيف أن عطبا حدث للعصب البصرى بحيث صار يعيد إنتاج ذلك الطيف حتى وأنا أتصفح كتبى وكراريسي. أهملت الموضوع، فهو شيء طارئ سينتهى حال أن أذهب إلى النوم. ووجدت أنه فعلا قد انتهى أثناء ذلك، كما اختفى فى صباح اليوم التالى وأنا أذهب إلى عملي وأنهمك فى الروتين اليومى للمركز، أناقش الباحثين وأراجع معهم الوثائق والبحوث. ولا أدرى لماذا عندما جاء المساء وعدت إلى المركز أواصل عملا يتصل بأبحاثى الخاصة، بعيدا عن زحمة المراجعين والعاملين، وجدت أن طيف خديجة قد عاد إلى الظهور مرة أخرى. رأيت طيفها باسما كأنها تنادينى وتهمس لى بتلك الكلمات التى أطربتنى عندما سمعتها بالأمس.

- تلك الطفلة التى أحبتك وأحببتها.

لعل هذا هو الحب قلت فى نفسي. لعلنى حقا أحببتها من حيث لا أدري، وإلا ما الذى يجعلنى مشغولا بها، لا أستطيع أن أرى، كلما خلوت إلى نفسي إلا طيفها. ترى أى حب هذا الذى يمكن أن يجمعنى بفتاة تصغرنى أكثر من

عشرين عاما وأنا الذى لم يعرف الحب إلا أوهاما أيام الصبا، أو أغنيات يسمعها فى المذياع أو قصصا يقرأها للتسلية، والذى رتب حياته بعيدا عن هذا الترف الذى لا يليق إلا باللاهين واللاعبين، لا بالرجال الذين كرسوا حياتهم للعلم أمثالي.

ثم كيف يمكن للقاء قصير عابر، لم يدم أكثر من خمس دقائق، أن يوقد شعلة الحب فى قلب يغطيه رماد السنين.

حقا، لقد بهرنى جمالها، وتمنيت لو أننى رجعت شابا، يضاهى عمرى عمرها، لأننى كنت أعرف أنها من نصيب رجل آخر، ينتمى إلى جيلها، ويتكافأ عمره مع عمرها، ووسامته مع جمالها، ولكن هل يخضع الحب لمثل هذه الاعتبارات؟ وهل يقيم وزنا لمثل هذا التفكير المنطقي؟

حاولت أن أواصل عملي، ولكن طيفها، أرغمنى على أن أترك المكتب، وأتجه إلى سيارتى أقودها على عجل باتجاه مركز المدينة. أوقفتها فى مكان قريب من سوق المشغولات اليدوية، ودخلت مسرعا إلى هناك، أترقب قدومها.

ولأننى لا أعرف مكانا آخر أذهب إليه بحثا عنها، فقد صار سوق المشغولات اليدوية، هو المكان الوحيد الذى أقصده كل يوم بأمل أن ألتقى بها.

كان طيفها لا يختفى إلا ليعود من جديد بمجرد أن أختلى بنفسي، ولم يكن لذلك كله سوى تفسير واحد، وهو أننى وقعت أسير هذه الأنثى التى رمت شباكها حولي، وتركت طيفها يلاحقني، ومنعتنى بأن أنشغل بأى شيء آخر سواها.

لم أعد قادرا على مواصلة القراءة والكتابة، لأننى ما إن أفتح كتابا حتى أرى صورتها تطفو فوق الكلمات، كما لم أعد قادرا على إنجاز عمل المركز، لأن كل ملكات الفهم والإدراك صارت مشغولة بها، تبحث عن وسيلة للتواصل معها. فحياتى لم تعد تعرف إلا هدفا واحدا هو أن ألتقى بخديجة مرة أخرى. ولا أدرى لماذا تصورت أن هذا اللقاء سوف يضع حدا لأوجاع القلب التى أحس بها، ويخرجنى من حالة القلق والذهول التى أصابتني. موقنا بأنها ما إن تراني، وتعرف حالتى حتى تدرك أنه لا إنسان فى الدنيا يمكن أن يحبها بمثل ما أحببتها. إننى الآن فقط أدركت، أن ما حدث

لى ليس حبا طارئا عابرا، جاء نتيجة التقائى بها وهى فى تمام نضجها وأنوثتها، وإنما حب بدأ معها منذ أن عرفتها فى مراحل عمرها الأول، ثم نمى هذا الحب، خلال سنوات الصمت والقطيعة، ولم يكن ينتظر إلا لقاء عابرا مثل ذلك اللقاء، ليتفجر كما يتفجر البرق عند تصادم السحب العامرة ببشائر الغيث والخصوبة.

داومت على الذهاب إلى السوق كل مساء، وذهبت ذات يوم فى مغامرة للبحث عن اسمها فى دفاتر المدرسة القديمة التى شهدت أول تعرف بيننا، علنى أعثر على أثر يدلنى على عنوانها، فوجدت أن المدرسة قد أزيلت، وحلت مكانها عمارات سكنية. عدت إلى الاحتماء بالسوق، الذى كنت أصل إليه أحيانا قبل أن تفتح الدكاكين أبوابها فأقضى ساعات الانتظار متجولا فى الشوارع المحاذية. لم أعد أبحث عن أحد يعرفنى أو أعرفه، وعندما يصادفنى فى الطريق وجها مألوفا كنت أدير وجهى إلى الناحية الأخرى، لكى لا أراه، لأننى لا أملك وقتا ولا فكرا لصحبة الناس. ثم ما لبثت هذه الزيارات المسائية للسوق، أن صارت صباحية أيضا،

فقد خشيت أن تأتى فى الصباح وتضيع فرصتى فى الالتقاء بها.

أصبحت بعد مضى أيام قليلة وجها معروفا لدى أصحاب الدكاكين، الذين اعتبرونى جميعا محبا لفنونهم وصناعاتهم اليدوية، واستخدمت أسلوبا ذكيا فى البحث عن خديجة، فقد كنت أشترى بعض مقتنياتهم، وأسألهم أثناء الشراء، إن كانت هذه المروحة المصنوعة من سعف النخيل، أو هذه المحفظة الجديدة الحافلة بالنقوش أو هذا الصحن الفضى المليء بالأسماك المرسومة، من شغل امرأة رأيتها تأتى إلى السوق وتقدم معروضاتها للدكاكين، فكانوا يسألوننى عن اسمها، أو يطلبون منى وصفا لها، لأن نساء كثيرات يقمن بهذا العمل. فكنت أخبرهم، بأننى لا أعرفها وإنما أعرف فتاة بالغة الجمال تأتى بصحبتها اسمها خديجة. لم يستطع أحد منهم أن يدلنى عليها ولكنهم عرفوا جميعا أن سبب مجيئى إلى السوق هو البحث عن صبية ذات ملاحة وبهاء اسمها خديجة. وأبدوا تعاطفا جميلا مع قضيتي، وصاروا يسألون كل امرأة تأتى بمشغولاتها إلى السوق عما إذا كان لها صديقة اسمها خديجة، يفعلون ذلك أمامى

ويطمئنوني بأنه لن تمضي سوى بضعة أيام حتى يهتدون إليها. ولكن خديجة لا تأتي، وكأنها اتخذت قرارا بأن تحجب نفسها عني، وتتركني أتعذب وحيدا مع طيفها.

طالت مدة غيابي عن المركز، وجاء زملاء العمل ورائي إلى السوق، يريدون إقناعي بالعودة إلى العمل، وعرفوا هم أيضا، ما يعرفه أهل السوق، من أنني أنتظر فتاة اسمها خديجة، فحاولوا معاونتي في العثور عليها، وجاء بعضهم يخبرني بأن هناك غانية يتناقل الناس أخبارها، ويتحدثون عن جمالها، وتتطابق أوصافها مع أوصاف المرأة التي أبحث عنها، كما يتطابق اسم الغانية مع اسمها، فاشتبكت في عراك معهم، ورفضت أن ألتقي بهم، أو أتحدث إليهم بعد ذلك. كما جاءني من أهل السوق من يعيد ذات الكلام، ويؤكد لي بأن خديجة التي أنتظرها. ليست إلا امرأة تبيع جمالها لزبائن المتعة، فكنت أرفض الاستماع إليه، لأنه لا يقول إلا كذبا، فلا يمكن أن تكون تلك الطفلة البريئة الجميلة، التي أحببتها وأحبتني قد أوصلتها تلك الحفلة المشؤومة إلى هذا السقوط الفاجع المروع.

وصدر بعد شهر أو أكثر من غيابي قرار بإعفائى من العمل، فحررنى ذلك من إلحاح وملاحقة الزملاء.

ولم يكن غريباً أن تعرف امرأتى السبب الذى جعلنى أغيب عن البيت طوال ساعات النهار، فتطلب الطلاق وحضانة الأطفال وملكية المنزل. وتحقق لها ما أرادت، وتحررت من أعباء الأسرة، كما تحررت من أعباء العمل، وصار بإمكانى الآن أن أختصر متاعب الذهاب إلى البيت والعودة منه. هناك ركن هادئ فى مدخل السوق، يجاور نافورة جميلة، ولن أجد مكانا أتخذه سكنا أفضل من هذا المكان. وجاء أهل الفضل ممن يعرفون قصتي، يبنون لى كشكا هناك، عندما رأونى أنام فى العراء ويعتبروننى حارسا ليليا لهذا السوق يستحق أجرا نظير قيامه بهذا العمل، فأعفانى ذلك من مشقة البقاء واقفاً طوال اليوم، وصار بإمكانى أن أجلس أمام السوق أراقب الداخلين والخارجين.

مضت الآن سنوات وأنا أقيم بهذا الكشك، وأتكوم كل يوم فوق الرصيف أتلقى نظرات الإشفاق والأسى، وأسأل نفسى لماذا أنا هنا، وما الذى أخرجنى من بيتى وعملى وحولنى إلى حطام مهمل لإنسان يعيش على هامش الحياة،

فأذكر أن ذلك كله كان بسبب امرأة، لم أعد أذكر اسمها، فقد توارت ذكراها فى صدرى واختفى طيفها من حياتي، وما عدت قادرا على أن أذكر ملامح وجهها حتى لو وقفت الآن أمامي. هل كان اسمها خديجة؟ ربما، فلم يعد ذلك مهما الآن. لقد حققت تلك الفتاة انتقامها، وأنزلت عقابا صارما بالرجل الذى هدم حياتها، ثم انتهت مهمتها بمجرد أن أوصلتنى إلى قاع هذا الجب.

القمر الأحمر

أبطأ القمر هذه الليلة

وعندما ظهر من وراء الهضـاب وكثبـان المـال البعيدة، كان وجهه جميلاً، داكن الحمرة كامـل الاسـتدارة، وغمر ضوءه الوادى والهضاب ورؤوس الأشـجار.. وبـدا الكون فى عين " منصور" فأتنا جميلاً.. ماست تحت عينـى منصور رؤوس الأشجار.. الخضراء التى صار لونهـا الآن أصفر كسنابل الحنطة، واهتزت بجوار إحدى قدميه زهـرة أبو قرعون صغيرة.. وتحول الحصى الذى فى الوادى إلـى جواهر تتوهج وتتألق.. ورغم أن منصور رجل ناضج فـى العشرين من عمره فقد أحس الآن أنه يعود طفـلاً صـغيراً، أخذ يحجل بقدمه اليسرى.. ثم قفز فى الهواء قفزات كثيـرة وسريعة، ثم هش على الشياه بالعصا حتى أن جديا صـغيراً فر هارباً مبتعداً عن بقية القطيع.. التفـت منصـور شـمالا ويمينا.. إلى القمر الأحمر.. إلى النجوم التـى تلمـع كأنهـا عيون السماء.. إلى جواهر الحصا، والعشب الذى يـركض مع النسيم، وإلى الشاه التى تركت الأكـل وأخـذت تنظـر باندهاش وقد تصلبت أذنيها إلى القمر. صـفر منصـور ...

صغيراً طويلاً وسعيداً عندما رأى هذا كله، وتذكر " هنـد " وتذكر وقفتها هذا الصباح على البئر عندما حياها فردت عليه برقة وحب – صباح الخير يا منصور..

وأحس منصور حقاً بالسعادة تملأ قلبه، وروحه كبيرة يشيعها فى نفسه السكون الهادئ الجميل الذى يملأ من حوله الأرض والسماء.. أحس منصور جمال كل هـذه وجلالـه.. فقرر أن يغني. واهتز معه السكون، وفتحت الهضاب البعيدة أفواهاً غير مرئية تردد معه الغناء، وتحول الوادى إلى كائن حى يرقص ويغني..

آه.. يا قمر.
لونك حمر
أنزل لها لوادى الخضر
أشعل لهند النار
نور لسعد الدار
وأحلب شياه عمار
وأشرب لبن.. هز النخل.. كول التمر..
آه.. يا قمر..
لونك حمر.

أنزل.

انطلق منصور يغني.. وما كان منصور ليستطيع أن يصمت عن الغناء، وهو يرى قمراً مستديراً أحمـر يظهـر فجأة من تحت غطاء السماء بالفضة والهضاب البعيدة كساها الحرير.. لم يكن ليرى هذا كله فيتوقف عن الغناء.. ذلك أن منصوراً كان هو مغنى القرية الرسمى، مـا حـدثت ليـالى أفراح وأعراس إلا وكان منصور هو الذى يحيهـا ويملأهـا طربا. وفى ليلة القنديل عندما ينقسم بيت الفرح قسمين، فـى الجانب النساء، وفى الجانب المقابل الرجال، وتفرش بينهمـا أجمل ما فى القرية من بسط ليكون مكانـا مناسـبا لصـبايا القرية حيث يجلس صفاً واحداً اسـتعداداً " للنخـيخ". كـان منصور يأخذ مكانه أمام الصبايا وفى يده عصـاه وأمامـه الصندوق الذى يضرب فوقه بالعصا، وبجواره سعدان بقربة عزفه الكبيرة.

وبدأ الفرح..

تتصاعد الزغاريد، وترفع الصـبايا الأغطيـة عـن رؤوسهن ويتهدل الشعر الغزير الأسود فوق الوجود ويبـدأ النخيخ.. تستوى الصبية منهن على ركبتيها ليبدأ بعـد ذلـك

الرأس والشعر واليدان فى رحلة جميلة.. جيئة وذهاباً.. حتى آخر الليل عندما ينتهى زيت القنديل.

وينفخ سعدان قربته، وتتصاعد الأنغـام ويضـرب منصور صندوقه فى إيقاع منتظم سريع ثم يرسـل الغنـاء، ومن خلفه شباب القرية يتوسطهم العريس يـرددون غنـاءه، وأمامه الشعر الأسود يواصل رحلته على إيقـاع طرقاتـه، وهناك فى الجانب الآخر النساء يملأن الجو بالزغاريد.

يتفجر منصور بالغناء.

ليس مهماً أن يكون غناءاً جاهزاً توارثته الأجيال فما أكثر ما يبتدع منصور غناءاً جديداً يسمعه الناس لأول مرة. وأغنية الشعور الغزيرة السوداء تعزف،وهو يغنى ويعـزف، وقربة سعدان المنفوخة تتصاعد أنغامها، وأصابع سعدان فوق فتحات القصبة ترقص فى سرعة وبطء.. فتتلون الأنغـام.. وتتحرك لواعج الشجن فى قلوب الصبايا فتهتز الرؤوس فى طيش ونزق، ويتبعثر الشعر فى صخب وفوضـى ويرتفـع رنين الفضة على صدورهن، وتدمى أيدى الرجال بالتصفيق وتزداد ضجة الزغاريد، حتى شمعة القنديل الكبيرة الطويلـة المتخمة بالزيت، تهتز شعلتها وتتراقص كأنها تقلد الصبايا..

وتتصاعد زغرودة طويلة على شرف العروسة، ثـم تلحق بها فى سرعة ودونما إبطاء زغرودة أخرى للعـريس، أما الزغرودة الثالثة فلا بد أن تكون إلى " الهند" ولا بـد أن يكون لها رنين خاص طويلة وجميلة.. ولها ديل يـنش فـى الهواء.. تلك هى زغرودة هند.

تنطق الزغرودة إلى هند.. لتجعل كـل شـئ فـى منصور يتيقظ وينتبه ويهتز انفعالاً وتتحول كل الخلايا فـى بدنه إلى عيون تنظر فى وله إلى هند.

أطول الشعور وأجملها.. شعر هند.

فى كل عرس مكانها لا بد أن يكون وسط الصـبايا، لتسحر الجميع بطول شعرها، وإبداع هزها، فما كان يحسب فى عداد الأعراس ذلك الذى لا تتربع هند فيه بين صباياه.

الصبايا تتهدل شعورهن الغزيرة، مدهونة بالزيـت، شعور سوداء تشع وتتألق وترقص، وهو دون كل الشـعور، يعشق شعر هند فشعرها أغزر وأطول وأدكن سـواداً مـن شعور كل الصبايا.. وهو يضرب على الصـندوق.. لـيس ضرباً. ولكنه عزف ما هو فيه فن وفيه ذوق. وهو يغني. أنه لا يغنى لأحد من كل هؤلاء الذين يحتشـدون حولـه مـن

الرجال والنساء.. وأنه يغنى لهند وشعر هند.. فقط.. وهنـد أمامه، تماما. شعرها الغزير يكاد يلامس وجهه ويداها أمامه، يدان مخضبتان بالحناء تخضيباً جميلاً.. رقيقتان.. وأصـابع نحيفة تمتلئ بالخواتم ورائحة شعرها تملأ خياشيمه.. وهزها البديع يملأ قلبه بالسعادة.

ولم تكن هند إلا ابنة الشيخ عامر أبـو ليلـى شـيخ القرية ورأسها المدبر، وأسرتها سـلالة شـرف وعراقـة، فضريح " أبو ليلة" والد الشيخ عامر لا زال مزاراً تنزل عنده القوافل يوماً بعد يوم، وما كان يشغل بال منصور هو هـل يرضى الشيخ عامر أن يزوجه هند، فمع أن منصور مغنـى القرية ومحيى أفراحها فهو ليس إلا راعياً صغيراً، يرعـى أغنام أعيان القرية وكبارها أمثال الشيخ عامر ومن هم فـى مكانته ومركزه فهل يمكن أن يزوجها له.

وفى كل الأعراس لا بد أن يغنى منصور.

ولا بد أن يتهدل ويتمايل وينش فى الهواء شعر هند، ابنة الشيخ وزينة صبايا القرية، ولا بد لمنصور أن يغنى لها ويغنى للقرية وللدنيا أغنيات رقيقة يقولها هـو لأول مـرة.. فتملأ القرية، يغنيها الأطفال فى الصباح.. وتغنيها النساء فى

مجالسهن وعلى الرحى وساعات الطهى وعندما يردن علـى البئر.. ولم يكن أحد يعرف هذا السر فى حياة منصور، لـم يكن أحد ليعرف علاقة الحب بين هند ومنصور. ورغم أنـه لم يتبادل مع هند كلمة حب واحدة، ولم يكن ليكلمهـا سـوى تحية حب عابرة يطلقها وهو يراها تملأ على البئر أو تغسل مع النساء على الغدير وهو يرعى شياهه تحية قصيرة تـرد عليها هى بتحية قصيرة لكنها تحية مليئة بألف وعد وألـف إشارة خفية يلتقطها من جهازها الأنثوى، من ابتسامة عينهـا من إشراقة يراها تضئ ملامح وجهها عنـدما تـراه، مـن اهتزازات رموشها من أصابع يديها وهى تـرتبط وتنفعـل عندما يلقاها، من كل ذلك صار يعرف أن هند تحبـه مثلمـاً يحبها. بل إن هذا الحب أحسن به صافيا عذباً ليلة أن رآهـا فى نهاية أحد الأفراد وقد تأخرت عن الصبايا فى العودة إلى البيت. عندما ألتقى بها جوار الغدير.. واقترب منها وحياهـا وقال لها - يا هند.. وقالت له – نعم يا منصور.. ثم أشارت له أن يبتعد خوفاً أن يراهما الناس.. فابتعد وقد أحس بالحب دفاقاً فى قلبه.. ولم يسع فرحته إلا القمر الذى كـان ليلتهـا

مستديراً أحمر يستقبل غناءه.. وهكذا أيام منصور تمر بـين رعى الشياه.. وأحياء ليالى القرية وأفراحها.

إلى أن كان يوم..

كان الفرح قائماً على قدم وساق، والزغاريـد تمـلأ القرية والصبايا يواصلن النخيخ، وقربة سعدان تغنـى علـى سجيتها، ومنصور مثلها يرسل الغناء علـى سـجيته، وفـى لحظة ودونما شعور فى لحظة من تلك اللحظات التى يتـوه فيها منصور فى غابة سوداء مـن شـعر هـن د، ويـدوب ويتحول إلى شعرة تختلج وترتعش فى شعر هند الطويل. فى لحظة لم يكن واعياً فيها منصور إلا نفسه ولا إلى من حوله، استرسلت مقاطع الغناء من فمه تفصح وتكشف وترفع الستار وتعلن ما كان مخفياً. فى لحظة قصيرة جاءت مقاطع الغنـاء غزلاً وولها صريحاً إلى هند، عن جمالهـا وعـن شـعرها وسواده وعبيره وعن حبها له وحبه لها، وعن لحظات لقائـه معها، وعن القمر الأحمر الذى كان جميلاً مثلها. استرسـلت مقاطع الغناء فى عفوية، وسهولة، وسـرعة، فلـم يكـن – منصور مغنياً محترفاً يضع مقاطع الغناء الجاهز ويكررهـا فى كل مكان، كان غناءه دائماً سجية وتدفقاً. وليلتها فاضـت

سجيته وكشفت أسرار قلبه، فاضت وتدفقت غنـاءاً صـافياً كالغدير، ولم يفكر منصور فيما سيقوله الناس، ولماذا يقـول الناس، ما العجب فى أن يرفع الغطاء عن قلبه ويسرد أمامهم الحب الذى يملأ قلبه، ألم تنبض قلوبهم بالحب مـرة، لمـاذا يظل الإنسان صندوقاً مقفولاً على نفسه، ليفتح لهم هذه الليلة صندوقه، ليدع الرافد الصغير الذى فى قلبـه يجـرى فـوق الأرض، لو كسر كل فرد السد الصغير الذى يقيمه فى قلبـه لامتلأت الأرض روافد صغيرة لا شك أنها ستتجمع لتصـنع نهراً كبيراً يخصب الأرض والحياة، وستزداد الدنيا جمـالاً. فما دامت قريتهم مليئة بأشجار النخيل والزيتـون، ومـا دام الوادى مليئاً بالخضرة.. وما دام القمر يظهر فـى منتصـف الليل أحمر جميلاً.. فلماذا لا تـتلاحم العواطـف.. ولـتكن الأسرة الكبيرة أفرادها نهراً وقمراً ووادياً أخضر.

استرسلت مقاطع الغناء من فم منصور دونما تحفظ..

وتحول كل من فى الفرح إلى عيون وآذان مشدوهة مندهشة مما يقوله منصور.. وليلتها انتهى الفرح مبكراً.. وما أفاق منصور إلى نفسه إلا وقد تحولت الأغنية من فمه إلـى أفواه الجميع، وما أن جاء الصباح حتى أن مـلأت الأغنيـة

القرية، حتى كان الأطفال يغنون ويلعبون بها بل أن آذانهـم الصغيرة تفتقت عن لعبة جديدة من وحى الأغنية اسمها لعبة " القمر الأحمر" وصار الشيوخ يرددونها فى مجالسهم خاصة بعد أن غيروا اسمها من القمر الأحمر إلى الحب الأحمر فهو فجور وفاحشة حمراء.. وبدأت الأفواه تتحرك وتضيف وبدأ خيال القرية الذى يصنع قصصاً من لا شئ يجد نواه لقصـة بديعة بدأ الخيال يؤلف كيف التقى منصور مع هنـد، كيـف اختلى بها جنب الغدير فى ليلة لم يكن هناك فيها سوى اثنين هند ومنصور وثالثهما القمر، وكيف اعتصر منصور جسدها البض، وكيف أن الشجر والريح والأعشـاب قـد التصـقت بالأرض خجلاً من منظرهما بجـوار الغـدير.. وكيـف أن الغدير عكس صورة لهما، صورة لم تكن بريئة ولا طاهرة. بل أن أحد مهرجى القرية قال لمن حوله أنه سـيذهب إلـى الغدير.. فلا بد أنه ما زال يحتفظ بصورتهما تلك الليلـة... طازجة.

ولم يكن خيال القرية ليلتهب كل هذا الالتهاب لو لـم تكن القصة مع هند. فكيف تسقط هند ابنة الشيخ عامر أبـو ليلة سيد القرية وشيخها وحفيدة صاحب الضريح الأخضر..

كيف تسقط هكذا ولا ينفعل خيال القرية ويلتهب. بل كثيرون من أهل القرية كانوا يحملون فى قلوبهم تشفياً لا يفصـحون عنهم لشيخهم عامر وهم يرونه يطأطئ رأيه الذى كان دائماً عاليا، يرون العار يخنف عنقه ويحنى ظهره، ولكنهم كـانوا يعرفون أن رأس عامر أبو ليلة سوف لن يظل مطأطأ إلـى الأبد فهم يعرفون شيخهم وغشامته وقوة بأسه. سوف تكـون له كلمة يرد بها اعتباره ويعود رأسه إلى مكانه العالي. وجاء الكلمة بعد يوم واحد.

- ماتت هند.

هكذا فجأة، وقبل أن يتهيأ ذهن القرية لسماع مثل هذا القول.. حتى جاءت خاطفة موجزة كضربة السيف.

- ماتت هند.

كيف ماتت ما الذى حدث لها؟ لم يكن أحد ليسـتطيع أن يفتح فمه بالسؤال، أو يعرف شيئاً أكثـر مـن أن هنـد مرضت فجأة وماتت فجأة، ولكن أحد منهم لم يكن ليخفى عن ذهنه أن هنداً لم تمرض ولم تمت موتاً طبيعياً، وإنما عـامر أبو ليلة قتل ابنته ليدفن عاره ويرفع رأسه.

ومنذ ذلك التاريخ.. ولأيام وشهور طويلـة، كانـت الأعراس تنطفئ أفراحها، وليلة القنديل تمر دون غنـاء ولا نخيخ.. وكان خيال القرية يسقط نادماً منكسراً على نفسه بعد أن أدرك بشاعة جريمته.. ولم يكن أحد ليلتقى بمنصور، كل الذى يعرفونه عنه.. أنه مع كل ليلة يسـرح فـى الـوادى وحيداً.. ينتظر القمر حتى يراه ينهض من خلـف الهضـاب وكثبان الرمال البعيدة. أحمر. قاتم الحمرة. كأنه بقعة كبيـرة من دم هند ولم يكن منصور يغنى للمقر أو يطلب منه ينـزل إلى الوادى الأخضر ليحلب الشياه ويشعل النار ويهز أشجار النخيل.

كان فقط يسأله كلما رآه يظهر فجأة من تحت غطاء السماء:

- لماذا قتلوا هند.. يا قمر.

الكذب

فجأة اكتشفت فى نفسى مقدرة عجيبـة علـى قـول الكذب! هكذا دونما تدبير سابق وجدت نفسى أكذب، وأكذب، أقلب الحقائق، وألفق بسرعة مدهشة أغرب القصـص،وأقول بيسر وسهولة أشياء لم تحدث، العجيب فى الأمر أيضا أننى أقولها بشجاعة لا أعرف من أين جاءتنى،لا أتلعثم، لا أرتبك، لا أرفع عينى عن وجه محدثى حياء وخجلا، لا عرق فـى جبينى، لا همسة لوم من ضميرى، ارتل أكاذيبى وكأننى أتلو صورة من كتاب مقدس

كنت شخصيا أول من أذهلته المفاجأة، ووقف أمامها مندهشا كأنه يشهد ميلاد المعجزة كأننى لست أنا الذى يتكلم، كأن هذا اللسان ليس لسانى، إنما لسان آخر مـن البلاسـتيك قادر على تلفيق الأكاذيب وضعوه فجأة فى فمـى، شـخص آخر غريب مدهش ساحر هو الذى يـتكلم بهـذه الطريقـة ويتصرف بهذا الأسلوب، وكنت حائرا لا أجد تفسيرا لهـذه المقدرة العجيبة التى ولدت معى فجأة وجعلتنى أتخلـى فـى ثانية واحدة عن طبعى، عن عمر كاملا، والكذب بهذا اليسر وهذه البساطة، كأنه ليس كما كنت أتصـوره دائمـا عمليـة

معقدة مركبة تحتاج إلى تربية خاصة ومهـارات فطريـة لا يمكن اكتسابها اكتسابا، فهى لا بد أن تكون قد ولدت معـك، ثم تطورت مع المران والتجربة والسنين، ولقد كنـت دائمـا ألوم نفسى لهذا العبط القروى الذى لازمنى كظلى، وأبقـانى فى مكانى لا أحقق تقدما فى رزقى أو وظيفتى ولا أعـرف اغتنام فرصة تواتينى، وكنت أرى أقـارب وأبنـاء عمـات وخالات وأصدقاء فى مثل عمرى وزملاء دراسة يكبرون فى وظائفهم، وتكبر دخولهم ومرتباتهم ونفوذهم فـى المجتمـع، يصعدون فى سرعة مذهلة تلك السلالم السحرية وطفون فى الهواء، فى حين أبقى أنا مشدودا إلى الأرض بجبال لا أراها ولكنها سمكية ثقيلة كالسلاسل، لا شك أن هذا العبط القـروى هو أكثر ثقلا وسمكا، وصرت أخجل حبى من الذهاب إلـى قريتى خوفا مما يعقده الناس من مقارنات بينى وبينهم ومـا أحسن به من خيبة حين تضمنى مجالس القرية معهـم وأرى ذلك الإعجاب الذى يحيطونهم به، فى حين أن نصيبى دائمـا تعليق بائس يركض ورائى عندما أغادر الجلسة:

مسكين عشرون عاما فى الحكومة وما زال يسـكن بالإيجار!!

وأطوى فى نفسى ألما لهذه الخيبة التى تلحـق بـى، محاولا أن أجد العذر لأهل قريتنا لأنهم بسـطاء وأميـون لا يعرفون أن الشيطان نفسه هو الذى صنع لهم هذه القصـور التى يسكنونها فى المدينة وهذه الأموال التى يفاخرون بهـا اليوم، بل أحاول أحيانا وأنا أجلس منفردا إليهم أن أشرح لهم الأمر فلا أجد إلا إصرارا على أن هذا الذى اسمه الشـيطان ليس إلا إله الحظ والذكاء والعبقرية ومـا أسـميه شـرفا أو صدقا إن هو إلا غلفة وعبطا وعجزا وعندما وجدت نفسـى مرة بدافع الحق أضرب لهم مثلا بأحد أبناء قريتنا ممن أثروا سريعا، لأنه كان يبيع بضائع مغشوشة للتجـار وأن قضـية مرفوعة عليه فى المحاكم، وكنت أظنهم يسـتنكرون فعلتـه ويرمون الشيطان الذى أملى عليه هذا الغش بحجارة تصـل إليه أينما كان وجدتهم بدلا من ذلك يفتحون أفواههم انبهارا، وتلمع أعينهم فى دهشة وإعجاب ويضربون كفا بكف فرحـا وانبساطا وأبن الكلاب، بانت عليـه إمـارات النبـوغ منـذ الطفولة!.

فألعن الأهل والجهل والنبوغ وأبناء الكلاب أينما كان وأن الحق ليس عليهم أو عليه وإنما الحق علـى أن لأننـى

لست ابن كلب نابغ، إذ لم أزور حتى الآن نقودا أو ارتش أو أبع بضائع مغشوشة أو أوقع عقدا مع الشـيطان فمـا أن إلا حاقد حسود محروم من النعمة، لم يصل إلى ما وصلوا إليـه فوقف عاجزا يسمى نجاحهم انحرافا وكذبا ورشـوة وغشـا وتزويرا وأحاول أن أنسى وأن أمضى مع حياتى فى روتينها اليومى، وأذهب فى قناعة إلى عملى فى مخازن الوزارة كما يفعل كل الناس، وأن أنظر إلى الأرض لأرى آلاف الكائنات التى تمشى على أقدامها مثلـى، وأتـرك السـماء والنجـوم والقباب العالية لمن يملكون الأجنحة وأرضى بما ساقه لى ا من رزق يكفى أنه حلال، أناله بتعبى وكـدى وأنـام هانئـا مرتاح الضمير، ولكن من أين تأتى الراحة وزوجتى غفر ا لها تحتفظ تحت المخدة بجرس ما إن أدخل البيت لأنام حتى تأخذه وتبدأ فى قرعة محدثا دويا هائلا يطرد كل سـلاطين النوم، ويا حسرة على فلان الذى ابتنى لأهله دارا لها حديقة من حدائق الجنة (فى حين نكترى نحن زريبة يملكها رجـل هو بلا شك من زبانية الجحيم، يكاد يمنعنا من الهمس والكلام ويمنع أطفالنا من اللعب ويرى فى كل تصرف حجة لطردنا من البيت حيث سنواجه مصيرنا فى العراء قريبا إن شاء ا

هكذا يقوى صدى الناقوس) والآخر الذى جاء من أمريكـا بسيارة كأنها القصر يتنزه فيها مع زوجته وأولاده كل مساء (ولنتكدس نحن داخل هذا الكهف وكأننا قد تنازلنا عن حصتنا فى الشمس والهواء والحدائق والشواطئ والمنتزهـات مـن دون عباد ا).

والرابع أو الخامس أو السادس الذى يرسل أبناءه إلى مدارس خاصة يتعلمون اللغـات الأجنبيـة (هـل صـاروا يدرسونهم اللغة الصينية فى المدارس الخاصة ستغزو الصين العالم وسيواجه أطفالنا مصيرهم فى ذلك العصر الصينى بلا لغة صينية وسيموتون جوعا).

والعاشر أو الحادى عشر أو الثانى عشر الذى أخـذ زوجته لقضاء الصيف بإيطاليا (ويا خيبة زوجة مثلها أوقعها الحظ فى زوج لا يعرف كيف يدبر لها نزهة فى ضـواحى المدينة) والواحد أو الثانى أو الثالث بعد الآلف الذى يحتفـل بأعياد ميلاد أطفاله ويشترى لهم ساعات جديـدة (وليواجـه أطفالنا مصيرهم بلا ساعات، وسيموتون يوما فـى الشـارع لأنهم لا يملكون فى معاصم أيديهم ساعات تدافع عنهم)

ويظل الجرس يقرع ليلة وراء الأخرى يمنع عنـى النوم ويملأ رأسى عقارب وكلاب وأفاعى وقصور ولغـات وحدائق وساعات ورعب ولعنة وموت، وأموت لسـاعة أو لساعتين وأرى نفسه فى الموت وقد علقوا فى عنقى السلاسل وأخذتنى زبانية غلاظ شداد إلى الجحيم فأصيح قائلا إن هـذا خطأ عظيم فما أنا إلا واحد من أهل الجنة، عشـت حيـاتى صادقا شريفا لا أكذب ولا أسرق ولا أغش وأكتفى بكسـرة الخبز لأكون جديرا بها، ولكن بلا فائدة فقد طوحوا بى فـى الهواء، وقذفوا بى إلى آبار اللهب وأحسن لسع النار فأستيقظ من موتى مرتعبا وأدعو فى صلاتى أن يغفر لى ا ويمنحنى من خيره الكثير ويحين موعد عملى فأجـد نفسـى دون أن أدرى أجلس إلى منضدة مليئة بالحروق داخل المخزن أدفـن رأسى فى الأوراق والملفات والاستمارات دون أن أعـرف وخلال عشر سنوات هى مدة عملى فى هذا المكان ما هـو شكل السقف!

ويرغم أننى لست على جهل كامل بقواعد التعامـل بين الناس قد أقول شيئا لا أعينه مجاملة وذوقا وقد أكتم فـى نفسى شيئا أريد أن أقوله تأدبا وخجلا أو خوفا وقد أتصـنع

الفرح حينا والحزن حينا آخر مسايرة لما جرى به العـرف وقد أمارى الآخرين فى التبسيط إلى الرؤساء وبعـض ذوى الشأن لا تقى غضبهم وبأسهم إلا أننى خارج هـذه الحـدود أغرق فى شبر ماء ولا أفلح فى تأليف قصة وهمية واحـدة حتى لو حاولت فإننى أتلعثم وأتعش ويمتلئ جبينى عرقا ولا أجد مناصا من قول الحقيقة حتى لو كان ذلك سببا فى طردى من الخدمة!.

وهكذا فقد فوجئت واندهشت لهذه المقـدرة العجيبـة التى تفجرت فى نفسى على قول الكذب.

كنت ساعتها أمرق من الشارع مسـتعجلا لقضـاء بعض شأنى فجأة أمسك بذراعى أحد الناس ممـن أعـرفهم تصادف أن لديه حاجة عندى غمرنى بترحيبه وسلامة وأطال الترحيب والسلام كنت لأمر ما أحسن بكآبة غريبـة ثقيلـة تطبق على صدرى فما أن فتح الموضوع حتى قلت فى نفاد صبر

أنا عائد إلى البيت بعد قليل خاطبنى هاتفيا!

كنت أعرف أننى لست عائدا إلى البيت بعـد قليـل وأننى لا أملك جهازاً للهاتف فى بيتى كم الرقم؟

اخترعت من فورى رقما، لم أتلعثم أو أرفع بصرى عن عينه، أو أحسن فى دخيلتى بأى لوم أو عتـاب ودعتـه ومضيت، لم أتنبه إلى المعجزة التى حدثت منذ أول لحظـة، مر وقت قبل أن أدرك ما فعلت وقفت فى منتصف الشـارع مذهولا، متأملاً ما حدث متسائلا بينى وبين نفسى إن كان هذا ما قلته حقا، راودتنى رغبة عنيفة فى أن أضحك تبخرت من صدرى سحب الكآبة وغمرت قلبى أمطار الفرح فذهبت وأنا بين التصديق والتكذيب محاولا أن أمرن نفسى علـى هـذه المقدرة التى اكتسبتها الآن دخلت دكان تاجر ممن يـوردون بضائع إلى مخزن الوزارة وجدت نفسى أنهمك على الفـور فى تأليف حكايات كاذبة عن علاقـاتى بالمسـئولين الكبـار وأننى سأوصى به خيراً وأن طلبية كبيرة فى طريقها إليـه، ترك الرجل زبائنه وتفرغ للحديث معى طلـب أن يحضـر القهوة لكننى ادعيت أن لدى موعدا عاجلا مع وكيل الوزارة وخرجت، كنت سعيداً لكننى كنت أخشى أن يكـون الأمـر مجرد نزوة عابرة جاءت نتيجة ما كنت احسن به من ضيق، فذهبت أجرب قدراتى مع كل فرصة تسنح لي.

كم الساعة من فضلك؟

ليس معى ساعة

لا يهمنى إن كان قد رآها فى معصـم يـدى أو لـم يرها، كل ما يهمنى الآن هو هذه الفرصة التى تغمرنى لأننى قادر على أن أقول ذلك، سعيد سعادة من وصل سن البلـوغ واكتشف فجأة ولأول مرة، قدرته على ممارسة الجنس!.

أليس هذا هو الطريق الذى يقود إلى مصرف الأمة؟

كان ذلك هو الطريق، ولكن ما الضرر فى أن أجعله يتوه قليلاً.

لا إنه فى الاتجاه المقابل

هكذا، كذب مجانى لا هدف منه ولا غايـة سـوى التسلية والتمرين.

حتى فى اليوم التالى وأنا ألتقى بالزملاء فى العمـل، كانت شهيتى للكذب ما زالت على أشدها

القلم دقيقة

ليس معى قلم.

مهما كان الأمر تافها صغيرا، مهما كان عدد الأقلام الذى فى درج مكتبى أو جيب سترتى منتبها إلى أن عبطـى القديم الذى يجعلنى أندفع فى تقديم القلم قد أضاع إلى أقلامـاً

كثيرة بعضها كان ثمينا، معجبا بهذه الطريقة التى أقول بهـا كلماتى، بحسم وثقة تجعله حتى لو رأى معى عشرين قلمـا لظن أن ذلك مجرد وهم.

ذهبت أقتنص كل فرصة لتمرين هذه العضلة الخفية، السحرية التى كانت معى ولم أحسن بها، ولم انتبـه إليهـا، وظلت نائمة معطلة مهملة، فلم اكتشفها إلا الآن، لأعوض إذا كل سنوات الإهمال والعطالة، لأسرف فـى اسـتعمالها مـا وجدت إلى ذك سبيلا، ذهبت اكذب وأكـذب واكـذب، فـى العمل، وخارجه العمل، مع الزملاء والمراجعين والرؤسـاء داخل البيت وخارجه ليكن كل ما أقوله كذبا، حتى تنمو هـذه العضلة وتزداد مناعة وقوة لا يهمنـى أن يكتشـف النـاس أكاذيبى، لا يهمنى رضاهم أو غضبهم فأنا لا أكذب لتحقيـق أى غاية أو هدف ليس فى ذهنى أية نية خبيثة مبيتـة، كـان الأمر بالنسبة لى مجرد لعبة مسلية مجرد تمرين لعضلة ميتة دبت فيها الحياة فجأة، وشيئا فشيئا بدأت تتكشف لى عـوالم جديدة ويصبح كل شئ من حولى مثيرا وأخرج مـن تلـك الوتيرة التى سارت عليها حياتى، وذلك الروتين القاتل الـذى يجعل يومى نسخة مكررة مهملة بلا تجديد ولا إثارة هـاهو

عالمى مليئ بالحكايات والتجارب والمغامرات التى ألتقى بها كل يوم، اهتماما من حولى ومعارك تثار بسببى وتحولا يطرأ على حياتى زمن إنسان لا أهمية له أصبح فجأة مركز اهتمام كل الناس، وتيقنت شيئا فشيئا أن الكذب هـو القاعـدة وأن الصدق هو الاستثناء، وأن كل شئ جميل فى الكون فى فقط جميل لأنه كذوب، فالغناء كذب لذلك هو جميـل ونشـرات الأخبار كذب ومبالغات ولذلك نحن نسمعها والصحف فبركة وتلفيق وذلك نحن نقرأها، والأدب هذا الذى يثيـر مشـاعر الناس وينال صاحبه المجد والخلود أليس كله كـذبا، ألـيس مجرد تلفيق لقصص وأساطير لم تحدث فوق أرض الواقـع، إنه كذب ولذلك هو جميل، والعصافير تغنـى كـذبا ولـذلك نطرب لها، والربيع ما كان ليصبح أجمل الفصول إلا لأنـه أكذبها، والقمر جميل لأننا نرى شكلا خادعـا لـه، وكـذلك مشاهد الشروق والغروب كلها جميلة لأنها كاذبـة، أليسـت النجوم التى نراها جميلة تملأ السماء، مجرد أجـرام كبيـرة مخفية بعضها اختفى منذ ملايين السنين، والشـمس أليسـت مجرد كوكب حجمى لا يتحرك من مكانه، أليس كذباً كل ما نراه ونعجب به، والنساء إن أكثرهن جمالاً هى أكثرهن كذبا

وتفننا فى التزويق والخداع وإخفاء ملامحها الحقيقية كم هـو جميل هذا الكذب، كم أنا جميل عندما أكذب!!

صرت أكذب بمثل ما أكل وأشرب وأتنفس، أكـذب وأكذب وأكذب ولا أجد متعة ولا سعادة إلا فـى الكـذب لا أتلعثم واضطرب وأحسن بالخجل إلا عنـدما أجـد نفسـى مضطرا لأن أقول شيئا ليس كذباً!

ولا أدرى كيف ربى لى الكذب جناحين أحلق بهمـا فى الهواء كجوارح الطير، لا أدرى كيف اتسعت فجأة دائرة أصدقائى، وتجمع الناس من حولى كأننى أصنع أعيادا وليس أكاذيب، وكيف ازدادت هذه الدائرة مع الأيام اتساعا لتشـمل كل أصحاب النفوذ فى المجتمع الذين كنت منذ زمن قريب لا أراهم إلا من بعيد وانظر نحوهم فى هيبة وخوف إذ بهم فجأة يصبحون أصدقاء اعزاء وزملاء السهر والنزهة والسفر.

ولا أدرى كيف تركت رطوبة ذلك المخزن إلى مكتب فى الطوابق العليا كبير وله نوافذ وشرفات، وكيف تركت بينى القديم فى أفقر أحياء المدينة، إلا دارة لها حديقة بجوار البحر ثم كيف صارت لى شركة هى ملكى، وتوريدات ومعاملات وعطاءات عالمية وسكرتيرات

يخاطبنى بلغة أجنبية لا أدرى كيف صرت أفهمها واتكلمها وأفاوض بها أرباب المال والعمل فى العواصم العالمية.

ووجدت وأنا أدخل عالمى الجديد أن كل الذين وصلوا هناك هم أساتذة فى الكذب، وان التحدى الوحيد أمامى عندما أتعامل معهم هو أن أكذب كذبا أعظم وأكثر مهارة وحبكة من أكاذيبهم فهناك دائما كذب أرقى وأروع وأجمل لم نقله بعد فلا شيء سوى الكذب، الكذب، الكذب، سيدى ومولاى وولى نعمتى الكذب صاحب الجلالة الكذب!!